

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

حِينَ يَنْفَصِلُ التَّوْحِيدُ
عَنِ الْمُسَاوَمَةِ وَيَسْتَعِيدُ
الْإِنْسَانُ حُرِّيَّتَهُ



تأليف:

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

حِينَ يَنْفَصِلُ التَّوْحِيدُ عَنِ الْمُسَاوَمَةِ وَيَسْتَعِيدُ الْإِنْسَانُ حُرِّيَّتَهُ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة المنهجية

سورة قصيرة تحرس الحدَّ الفاصل بين الإيمان والذوبان

ليست سورة الكافرون خطاباً عابراً وُجِّهَ إلى جماعة من المشركين في لحظة تاريخية انقضت، وليست مجرد إعلان براءة يُتلى باللسان ثم ينتهي أثره عند آخر آياته؛ إنها سورة الهوية حين نتعرض للضغط، وسورة اليقين حين يُستدرج إلى المساومة، وسورة التوحيد حين يحاول الباطل أن ينتزع منه اعترافاً صغيراً يفتح به باباً كبيراً، وسورة الإنسان المؤمن حين يقف وحيداً أمام مجتمع يملك المال والسلطة والعادة والميراث، لكنه يملك كلمةً تلقاها من فوق، فإذا الكلمة أثقل من مكة كلها، وأبقى من أصنامها، وأشد حضوراً في التاريخ من ساداتها الذين ظنوا أن قوتهم قادرة على تطويع الرسالة وإدخالها في نظام المصالح المتبادلة.

إنها ست آيات فقط، ولكنها تقيم داخل النفس بناءً كاملاً من الوضوح؛ تبدأ بالأمر الإلهي: ﴿قُلْ﴾، وتنتهي بالفصل الحاسم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وبين البدء والنهاية تتكرر البراءة حتى لا تبقى في العبارة ثغرة، ولا في الموقف شبهة، ولا في المستقبل احتمال مساومة؛ فليس المقصود أن يرفض النبي ﷺ عبادة أصنامهم في لحظة الراهنة فحسب، بل أن يُغلق كل زمنٍ يأتي، وكل صيغة تُقترح، وكل حيلة يتزين بها الباطل، وكل منطقة رمادية يحاول الشرك أن يصنعها بين التوحيد والوثنية.

وقد نزلت السورة في مناخ كانت قریش تحاول فيه أن تُحوِّل الصراع بين الإسلام والجاهلية من صراع بين حقيقتين متناقضتين إلى تفاوضٍ بين مصلحتين يمكن التوفيق بينهما؛ فقد ظنوا أن

محمدًا ﷺ يطلب منزلةً أو سيادةً أو اعترافاً، وأن دعوته قابلةٌ لأن تُستوعب داخل النظام القائم إذا أُعطي منها شيء وأخذ منها شيء. ولم يفهموا أن النبوة لا تدخل سوق المقايضات، وأن الوحي لا يملك صاحبه أن يحذف منه أو يضيف إليه، وأن التوحيد ليس رأياً شخصياً للنبي يمكنه تعديله، بل هو حق الله على عباده، والحق لا يتحول إلى نصف حق كي يرضى عنه الباطل.

كانوا يريدون صيغةً تبدو في ظاهرها متسامحة: أن يقترب كل طرف من الآخر خطوة، وأن يعبد محمد ﷺ آلهتهم زمناً، ويعبدوا إلهه زمناً، وكأن القضية خلافٌ في طرائق التعبد لا اختلافٌ في حقيقة المعبود، وكأن الأصنام والله سبحانه أطرافٌ متقابلة في ساحة واحدة، يمكن أن توزع بينها أيام العبادة بالتساوي. فجاءت السورة لا لتناقش تفاصيل العرض، بل لتنسف منطقته من أساسه؛ لأن التوحيد لا يقبل أن يُوضع الله سبحانه في صفٍّ واحد مع حجرٍ صنعتته الأيدي، ولا يقبل أن تكون العبادة حصّةً زمنية، ولا أن يكون الإيمان هدنةً بين قلبين متناقضين، ولا أن يتحول الدين إلى مجاملة اجتماعية تُرضي الجميع وتُغضب رب العالمين.

وسنسير في هذا الكتيب مع السورة على منهجٍ يبدأ من ألفاظها ونظمها وسياقها، ثم يفتح على ما تبنيه في النفس والعقل والحياة؛ سنقف عند الأمر ﴿قُلْ﴾ لندرك أن المؤمن لا يخترع موقفه من عند نفسه، بل يتلقاه من ربه؛ وعند النداء ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ لتأمل شجاعة الوضوح حين تصبح الأسماء ضرورةً لحماية المعاني؛ وعند تكرار النفي لنعرف أن الباطل لا يكتفي برفضٍ مجملٍ قد يؤوله كما يريد، بل لا بد له من بيانٍ يغلق أبواب التلبيس؛ وعند الفرق بين ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ و﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ لنرى كيف يحرق القرآن الحاضر والمستقبل معاً من كل احتمال للرجوع؛ ثم نقف عند الخاتمة المهيبة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ لنفهم أنها ليست إقراراً بصحة

الأديان جميعاً، ولا رضا بالكفر، ولا انسحاباً من واجب البلاغ، وإنما هي إعلان انتهاء المساومة، وتمييز الطريقتين، وردّ كل فريق إلى اختياره ومسؤوليته ومصيره.

وسنحذر في أثناء هذا التدبر من تحويل السورة إلى شعار خصومة مع البشر؛ فهي سورة براءة من الكفر وليست دعوة إلى الظلم، وسورة تمييز عقدي وليست إذناً بخيانة العدل، وسورة ثبات على الحق لا تحريضاً على العدوان. لقد خاطب القرآن المخالفين بوضوح، لكنه أمر بالعدل، ونهى عن البغي، وفتح أبواب الدعوة، وأبقى باب التوبة أوسع من خطايا الإنسان. والفرق عظيم بين أن تحترم إنسانية المخالف وبين أن تُصحح اعتقاده، وبين أن تحفظ حقه في العدل وبين أن تخلط الحق بالباطل، وبين أن تحسن إليه وبين أن تمنحه من ضميرك شهادة بأن ما يعبد حق. إن الإسلام يستطيع أن يجمع بين الرحمة والوضوح؛ لأن الرحمة التي تكذب على الإنسان ليست رحمة، والوضوح الذي يظلمه ليس من الحق.

إن سورة الكافرون تعالج واحدة من أخطر آفات الوعي الديني: الخلط بين التعايش والتنازل، وبين الحكمة والمداهنة، وبين اتساع الخلق وذوبان العقيدة. فالمؤمن مأمور أن يعيش بين الناس بالعدل والإحسان، لكنه غير مأذون أن يُخفي الفارق بين التوحيد والشرك كي يبدو مقبولاً؛ ومأمور أن يدعو بالحكمة، لكنه غير مأذون أن يحذف من الحقيقة ما يزعج سامعيها؛ ومأمور أن يلين في أسلوبه، لكنه غير مأذون أن يجعل دين الله مادة قابلة لإعادة الصياغة بحسب أهواء المجالس وموازن القوى.

وليست المساومة دائماً في صورة رجلٍ يطلب من المؤمن أن يسجد لصنم؛ فقد تكون المساومة الحديثة أكثر خفاءً، حين يُطلب منه أن يحتفظ بإيمانه في أعماقه بشرط ألا يكون لهذا الإيمان سلطاناً على أحكامه، أو أن يذكر الله ما دام لا يعترض بمنهج الله على فساد السوق أو السياسة أو

الأخلاق، أو أن يعتز بالقرآن بوصفه تراثاً جمالياً لا كتاباً حاكماً على التصورات والموازن. وقد لا يقول له أحد: اعبد آلهتنا، لكنه قد يُطلب منه أن يعترف للأهواء بسلطانٍ يشارك سلطان الله، وأن يمنح العرف أو المصلحة أو ضغط الجماعة حقَّ التحليل والتحريم، وأن يجعل الوحي صوتاً من أصواتٍ كثيرة لا الكلمة العليا التي تُوزن بها الأصوات.

ومن هنا تتجدد سورة الكافرون في كل عصر؛ لأنها لا تحارب أسماء الأصنام وحدها، بل تحارب منطق الوثنية أينما ظهر: منطق توزيع القلب بين أربابٍ متعددين، ومنطق طاعة الله في مساحة وطاعة الهوى في مساحة أخرى، ومنطق الاحتفاظ بالتوحيد شعاراً مع منح السيادة العملية لغير الله. إنها تُعيد جمع الإنسان بعد أن مزقته الولاءات، وترده إلى قبلة واحدة، ومرجعية واحدة، وغاية واحدة؛ حتى لا يكون في صلاته لله، وفي خوفه للناس، وفي رجائه للمال، وفي أحكامه للهوى، وفي مصيره للأوهام.

سنقرأ هذه السورة إذن بوصفها بناءً للتحرب؛ فالذي يعبد الله وحده لا يكون عبداً لضغط المجتمع، ولا لسطوة الأكثرية، ولا لبريق المنصب، ولا لوحشة الطريق، ولا لحاجة القبول. وحين يقول المؤمن: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فهو لا يرفض حجراً فحسب، بل يرفض كل ما يطلب منه أن ينحني له من دون الله: الخوف، والطمع، والشهوة، والعادة، والجمهور، والزعيم، والصورة التي يريد الناس أن يصنعوها له. إن التوحيد ليس مجرد فكرة عن الله؛ إنه إعادة ترتيب كاملة لمراكز القوة داخل الإنسان، حتى لا يبقى في القلب عرشٌ إلا لله.

الفصل الأول

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾

حين تأتي الكلمة من فوق فلا تملك الأرض أن تُسكتها

تبدأ السورة بفعلٍ صغيرٍ في حروفه، عظيمٍ في دلالاته: ﴿قُلْ﴾. ولم يكن النبي ﷺ عاجزاً عن الكلام حتى يحتاج إلى أن يُؤمر به، ولكن الأمر هنا يحدد مصدر الكلمة قبل أن يحدد مضمونها؛ فما سيأتي ليس غضباً شخصياً، ولا ردّ فعلٍ نفسياً على أذى قريش، ولا تصلباً تفاوضياً أراد به النبي أن يرفع سقف مطالبه، بل هو قولٌ صادرٌ عن الله، أمر الرسول أن يبلغه كما تلقاه، دون أن يستبدل وضوحه بعبارةٍ ألطف في نظر الناس، ودون أن يؤجل إعلانه حتى تصبح الظروف أكثر أمناً، ودون أن يبحث عن صياغةٍ تحتل الحق والباطل معاً.

إن ﴿قُلْ﴾ تخلع عن الخطاب كل شبهةٍ ذاتية؛ فالنبي ﷺ لا يقول: هذا رأيي في عرضكم، بل يبلغ حكم الله في أصل المسألة. وبين الرأي والوحي مسافةٌ هائلة؛ فالرأي يجوز لصاحبه أن يراجع، وأن يقترب به من آراء الآخرين، وأن يتنازل عن بعضه طلباً لاتفاق، أما الوحي فليس ملكاً للنبي حتى يتصرف فيه، ولا يملك الرسول أمامه إلا أمانة البلاغ وكال الامتثال. ومن هنا كانت هذه الكلمة القصيرة هي أول حصنٍ في السورة؛ إذ تعلن أن القضية خرجت منذ اللحظة الأولى من دائرة التفاوض البشري، وأن الخصم لا يقف أمام رجلٍ يمكن تطويعه، بل أمام رسالةٍ لا تبدل بتبدل الموازين.

لقد كان محمد ﷺ يعيش في مكة محاطاً بسلطة قريش، وكانت قريش تملك مفاتيح الاقتصاد والمكانة والحماية، وتستند إلى ميراثٍ طويلٍ من التقاليد، بينما كان المؤمنون قلةً مستضعفةً يتعرضون للأذى والاضطهاد. وفي مثل هذا الظرف قد يبدو تأجيل المفاصلة نوعاً من الحكمة السياسية، وقد يبدو قبول بعض التنازلات سبيلاً إلى حماية الدعوة وأهلها، لكن الوحي كان يبني الأمة على قاعدةٍ أعمق من حساب النجاة العاجلة: إن الدعوة التي تنجو بعد أن تفقد حقيقتها لم تنج، وإن المؤمن الذي يحمي جسده بتسليم معنى إيمانه قد خسر الشيء الذي يستحق أن يُحمى الجسد من أجله.

ولهذا لم يقل الله لنبيه: فكّر فيما عرضه، ولا: اقترب منهم بمقدار ما يقتربون منك، ولا: ابحثوا عن مساحةٍ وسطى ترضي الجميع، بل قال: ﴿قُلْ﴾؛ أي أخرج الموقف من ضميرك إلى المجال العام، واجعل الحقيقة مسموعةً بعد أن حاولوا حبسها في غرف التفاوض، وأعلن أن التوحيد لا يدخل في الصفقات السرية، وأن مستقبل الدعوة لا يُبنى بتسويةٍ تُرضي أصحاب الأصنام وتُغضب رب العالمين. قرب كلمةٍ صريحةٍ تُغلق أمام صاحبها أبواباً قريبة، لكنها تفتح له في التاريخ أبواباً لا تنتهي؛ ورب كلمةٍ دبلوماسيةٍ تحفظ له لحظته، لكنها تهدم المعنى الذي جاء ليحمله إلى الأجيال.

وتكشف ﴿قُلْ﴾ عن حقيقة العبودية في الرسول نفسه؛ فهو أول الممثلين للكلمة التي يبلغها، وأول الواقفين تحت سلطان الخطاب الذي يحمله. ليست النبوة سلطةً تضع صاحبها فوق الأمر، بل عبوديةٌ كاملة تجعل الرسول أكثر الناس خضوعاً لما أمر به. لقد كان يمكن للنفس البشرية، لو تُركت إلى تقديرها، أن تحسب الآلام التي ستنتج عن هذا الإعلان، وأن تستحضر حصار المؤمنين وضعفهم، وأن تخشى اشتداد الخصومة؛ لكن النبي ﷺ قال ما أمر به، لأن العبد

الصادق لا يزن أمر الله بمقدار الراحة التي يحققها له، بل يزن راحته كلها بمقدار موافقتها لأمر الله.

وفي هذه الكلمة تربية لكل صاحب حق؛ فليس المؤمن منشئاً للحقيقة من ذاته، بل شاهداً عليها، وليس مالكا لها حتى يحذف منها ما يشاء، بل مؤتمناً عليها. وحين يدرك الداعية أن الكلمة التي يحملها ليست ملكه يتحرر من نوعين متقابلين من الانحراف: يتحرر من الجبن الذي يكتم الحق طلباً للقبول، ويتحرر كذلك من الغرور الذي يجعل الدعوة استعراضاً لذاته. إنه يقول لأن الله أمره أن يقول، ويصمت حيث يكون الصمت حكمة شرعية، ويلين حيث يكون اللين سبيلاً إلى وصول الحق، ويشدد حيث يصبح اللين تفریطاً؛ فلا يحركه تصفيق الناس ولا استفزازهم، بل يحركه ميزان الأمانة.

ثم يأتي النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. والنداء في أصله استدعاءً للانتباه؛ فكأن السورة تطلب من المخاطبين أن يتركوا ضجيج الحسابات جانباً، وأن يسمعوا الحكم الذي لا التباس فيه. لم يقل: يا قومي، مع أن في هذه العبارة استدعاءً للقرابة، ولم يقل: يا أهل مكة، مع أن فيها انتساباً إلى المكان، بل سماهم بالوصف الذي يكشف موضع الخلاف: ﴿الْكَافِرُونَ﴾. ذلك لأن القضية في هذه اللحظة ليست قرابةً ولا وطناً ولا تجارةً ولا نسباً، وإنما هي موقف من الله؛ فإذا حضرت حقيقة العقيدة تراجعت الأسماء الأخرى إلى مواضعها، وبقي الاسم الذي يصف الانقسام العميق بين من وحّد الله ومن جحد وأشرك به.

وليس في هذا النداء شتيمة ولا انفجار كراهية، وإنما هو تسميةً عقديّةً منضبطة؛ فالكفر في أصل اللغة يتضمن الستر والتغطية، والكافر هو من ستر حقيقة الإيمان وحّد ما وجب عليه الإقرار به. والقرآن الذي وصفهم هنا بالكفر هو نفسه الذي أمر بالعدل، ونهى عن الاعتداء،

ودعاهم إلى الهدى، وفتح لهم باب التوبة ما دامت الحياة. فالوضوح في الحكم لا يعني الظلم في المعاملة، كما أن حسن المعاملة لا يعني تمييع الحكم. يستطيع المؤمن أن يقول للمخالف: إن ما أنت عليه باطل، ثم لا يجنسه حقاً، ولا يكذب عليه، ولا يخونه، ولا يعتدي عليه؛ لأن عدله ليس ثمناً لموافقة الناس له، بل عبادةً لربه الذي أمره أن يعدل.

ومن عظمة التعبير أنه جاء بالجمع: ﴿الْكَافِرُونَ﴾؛ فكثرة المخاطبين لا تُغيّر من حقيقة الموقف. كان النبي ﷺ فرداً في مواجهة جماعة لها السلطان، لكن العدد في ميزان الوحي لا يصنع الحق. إن اجتماع الآلاف على السجود لصنم لا يمنح الصنم شيئاً من الألوهية، كما أن وحدة المؤمن في طريقه لا تنتزع من الإيمان شيئاً من صدقه. ليست الحقيقة نتيجة تصويت، ولا يصبح الباطل حقاً لأن أصواته أكثر، ولا يصبح الحق باطلاً لأن أهله قليلون. ورب رجل يقف وحده وفي قلبه أمة من اليقين، ورب جماعة تملأ الساحات وليس في داخلها إلا فراغٌ يردده بعضها لبعض.

إن الآية الأولى وحدها تصنع في المؤمن شخصيةً مستقلة؛ ﴿قُلْ﴾ فلا تكتم، ﴿يَا أَيُّهَا﴾ فاجعل خطابك حاضراً واضحاً، ﴿الْكَافِرُونَ﴾ فسمّ الأشياء بأسمائها حين يصبح التلطف حجاباً على الحقيقة. وليس المقصود أن يتحول المؤمن إلى إنسانٍ فقط يوزع الأوصاف على الناس بلا علم ولا حكمة، وإنما أن يفهم أن اللغة ليست مجرد زينة؛ فحين تُمحي الفروق بين الإيمان والكفر من الكلمات، تبدأ بالاختفاء من الوعي، وحين يتردد اللسان في تسمية الباطل باسمه، يوشك القلب أن يتردد في رفضه، ثم يأتي جيلٌ لا يعرف لماذا كانت الرسالة ثورةً على الجاهلية، لأنه أقنع أن المسألة لم تكن إلا اختلاف أذواقٍ وطرائق.

إن كثيراً من الهزائم الفكرية تبدأ من معجمٍ مخادع؛ يُسمى التنازل مرونة، والمداهنة حكمة، والذوبان انفتاحاً، وتقديم رضا الناس على حكم الله واقعيةً، ثم يُسمى الثبات تشدداً، والوضوح إقصاءً، والغيرة على التوحيد ضيقاً. وهنا تأتي السورة لتعيد للكلمات طهارتها: هذا إيمان، وهذا كفر؛ هذه عبادة لله، وهذه عبادة لغيره؛ وهذا طريق لا يلتقي بذلك الطريق مهما تبادلا عبارات المجاملة. فإذا استقامت الأسماء في العقل، أمكن للمواقف أن تستقيم في الحياة.

ومع ذلك فإن هذا النداء لا يغلق باب الدعوة، بل يفتحها من موضع الصدق؛ لأن الدعوة لا تبدأ بإيهام المخالف أن ما عنده حق، وإنما تبدأ بتعريفه أين يقف وإلى أين يُدعى. والطبيب لا يرحم مريضه حين يبدل اسم الداء كيلا يزعجه، وإنما يرحمه حين يشخصه بصدق، ثم يفتح أمامه سبيل الشفاء. كذلك القرآن يسمي الكفر كفراً، ثم يظل يدعو الكافر إلى الإيمان؛ يصف حاله كما هي، لكنه لا يحكم عليه أن يبقى فيها إلى الأبد. وكم من إنسان ناداه الوحي بوصف الكفر في أول الطريق، ثم غسله الإيمان، وأصبح من أولياء الله وحملة رسالته.

وهنا تتجلى رحمةٌ خفية داخل صرامة اللفظ؛ فأن يقول الله للإنسان أين يقف خيرٌ له من أن يتركه يتوه في الأسماء المضللة، وأن يكشف له خطورة معبوده خيرٌ من أن يجامله حتى يفجأه المصير. إن الحق واضحٌ لأنه رحيم، والباطل ملتبسٌ لأنه يريد من ضحيته أن تستمر في السير إليه دون أن ترى نهايته. ولذلك كانت سورة الكافرون رحمةً في صورة مفاصلة؛ إنها تنتزع الأفعنة عن الطريقين قبل أن ينتهي المسافرون إلى نهايتهما.

إنها تقول للمؤمن في كل زمان: لا تنتظر من العالم أن يمنحك الإذن كي تكون مؤمناً، ولا تجعل كثرة المخالفين حجةً على قلبك، ولا تخلط اللطف بالخوف، ولا الاحترام بالتنازل، ولا

الحكمة بإخفاء الحقيقة. تلقَّ كلمتك من الله، ثم قلها بنظافة القلب، وعدل السلوك، ووضوح اليقين؛ فإن الكلمة التي تأتي من فوق لا تحتاج إلى صخبٍ يحميها، وإنما تحتاج إلى قلبٍ لا يخونها.

الفصل الثاني

﴿لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبَدُ﴾

حين لا يكون الاختلاف في الطريق وحده، بل في الغاية التي ينتهي إليها الطريق

بعد النداء الصريح: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، تأتي الجملة التي تحمل قلب السورة، وتضع الحد الفاصل بين التوحيد والشرك: ﴿لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. لم يقل: لا أحب ما تعبدون، ولا: لا أقنع بما تعبدون، ولا: لا أفضل ما تعبدون؛ لأن المسألة أعمق من ذوقٍ نفسي أو اختيارٍ فكري أو ميلٍ وجداني، إنها مسألة عبادة، والعبادة هي أعمق ما يمنحه الإنسان لغيره، لأنها لا تعني مجرد حركة الجسد في ركوع أو سجود، بل تعني خضوع القلب، وانقياد الإرادة، وتعليق الرجاء، واستقرار الخوف، وردَّ الأمر كله إلى جهةٍ يعتقد الإنسان أنها تملك الضر والنفع والمصير.

فالإنسان لا يعرف حقًا بما يقول إنه يحبه، وإنما بما يعبد؛ بما يقدمه عند التعارض، وبما يطيعه حين تتجاذبه الأوامر، وبما يخشى فقدته فوق كل فقد، وبما يرجو رضاه حين تغضب الجهات كلها. وقد يحمل المرء في لسانه اسم الله، لكن قلبه يطوف حول رضا الناس، وقد يتحدث عن الحرية، لكنه يرتعد أمام المنصب، وقد ينكر الأصنام المصنوعة من الحجر، ثم يقيم في داخله أصنامًا من المال والشهرة والشهوة والصورة الاجتماعية. ومن هنا لم تكن العبادة فعلاً معزولاً في زاوية الحياة، بل كانت المركز الذي تنتظم حوله بقية الأفعال؛ فإذا صح المعبود استقامت الجهات، وإذا فسد المعبود تحول الإنسان كله إلى حركةٍ دائبة في الطريق الخطأ.

إن قوله تعالى: ﴿لَا أُعْبُدُ﴾ إعلانٌ صادرٌ عن إرادةٍ استيقظت بنور الوحي، فلم تعد مستعدةً أن تخني إلا لمن خلقها. وهذه الـ«لا» ليست نفياً بارداً، بل تحريراً كاملاً للإنسان من كل سلطةٍ تتجاوز قدرها وتطلب من القلب ما لا يستحقه إلا الله. إنها «لا» في وجه الصنم حين يتخفى في صورة حجر، و«لا» في وجه الطاغية حين يريد أن يجعل إرادته شريعة، و«لا» في وجه الجمهور حين يطلب من الفرد أن يخون ضميره كي يحظى بالقبول، و«لا» في وجه الشهوة حين تقدم لذتها العاجلة على أنها قدرٌ لا يُقاوم، و«لا» في وجه الخوف حين يقنع صاحبه أن سلامة البدن أعظم من سلامة الإيمان.

غير أن هذه الـ«لا» لا تستمد قوتها من عناد النفس، بل من «نعم» عظيمة قالها القلب لله؛ فالؤمن لا يرفض معبودات الأرض لأنه يريد أن يعيش بلا معبود، وإنما يرفضها لأنه عرف المعبود الحق. لم يخرج من عبودية الأصنام إلى فراغٍ روحي، بل خرج منها إلى عبادة رب العالمين؛ ولذلك كانت حريته ليست تحرراً من كل قيد، وإنما تحرراً من القيود الزائفة بالدخول في العبودية الحققة. فالإنسان مخلوقٌ مفتقر، ولا يستطيع أن يعيش بلا غايةٍ نهائيةٍ تتجه إليها إرادته؛ فإن لم يعبد الله عبد شيئاً دونه، وإن زعم أنه متحرر من جميع العبوديات. قد يعبد ذاته، أو عقله، أو شهوته، أو عصره، أو جماعته، أو القوة التي تمنحه الأمان؛ لكنه لا يغادر بنية العبودية، وإنما يبدل اسم المعبود.

وحين يقول النبي ﷺ: ﴿لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فهو لا يعلن رفض آلهتهم وحدها، بل يرفض المنظومة كلها التي جعلت تلك الآلهة ممكنة: يرفض أن يكون بين العبد وربّه وسيطٌ يملك من خصائص الألوهية شيئاً، ويرفض أن تصنع الأيدي معبودها ثم تخني له، ويرفض أن يختار الإنسان إلهه بحسب ميراث الآباء أو مصالح القبيلة، ويرفض أن تكون الحقيقة الدينية خاضعةً

للعوائد الاجتماعية. فالأصنام لم تكن أجاراً فحسب؛ كانت نظاماً من المصالح، وذاكرة موروثة، وسلطةً للكهانة، ومصدراً لمكانة الزعماء، ورمزاً لوحدة الجاهلية. ولذلك كان إسقاطها في القلب أصعب من إسقاطها من حول الكعبة؛ لأن الأجار الخارجية قد تُحطَّم في لحظة، أما الأصنام التي تُخفيها النفوس داخل العادة والمصلحة فتحتاج إلى جهادٍ طويل.

وقد عبّر القرآن بقوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ليشمل كل ما اتجهت إليه عبادتهم من دون الله، وليجعل الرفض متصلاً بحقيقة المعبودات الباطلة مهما اختلفت صورها وأسمائها. فما دام الشيء معبوداً من دون الله أو مع الله، فإن موقف التوحيد منه ثابتٌ لا يتغير بسبب جمال اسمه أو قدم تاريخه أو كثرة أتباعه. قد يكون حجراً منحوتاً، وقد يكون بشراً رُفِعَ فوق منزلته، وقد يكون فكرةً تحولت إلى مرجعية مطلقة، وقد يكون هوىً يملك سلطة الأمر والنهي داخل النفس؛ لكن المعيار واحد: كل ما نازع الله حقه في الخضوع المطلق والطاعة العليا فقد اتخذ موضعاً ليس له. ولا يعني اتساع هذا المعنى أن كل طاعةٍ أو محبةٍ تصبح عبادةً؛ فالإنسان يحب أهله، ويطيع في المعروف من وجبت طاعته، ويحترم العلماء، وينتفع بأسباب الحياة، لكن ذلك كله يبقى محكوماً بحدوده وتحت سلطان الله. تبدأ الوثنية الخفية حين يتحول المحدود إلى مطلق، وحين تصبح طاعة المخلوق مقدمةً على أمر الخالق، وحين يُرجى من السبب ما لا يقدر عليه إلا مسبب الأسباب، وحين يُمنح البشر حق التشريع المطلق فيما هو من حق الله، وحين يصير رضا الجماعة أهم عند القلب من رضا الرب. فالتوحيد لا يُخرج الإنسان من العلاقات، وإنما يُعيد ترتيبها؛ يحب لله، ويطيع في الله، ويأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، ويعطي كل مخلوق قدره دون أن يمنحه شيئاً من خصائص الخالق.

وفي اختيار الفعل المضارع ﴿لَا أُعْبُدُ﴾ حضورٌ قوي لمعنى الحال والتجدد؛ أي إنني الآن لا أعبد ما تعبدون، ولا تدخل عبادتكم في عبادتي، ولا أشارككم شيئاً منها. إنه موقفٌ يتحقق في اللحظة، فلا يقول النبي ﷺ: كنت لا أعبد ما تعبدون، وكأن الأمر حكاية ماضٍ، بل يجعل البراءة قائمةً حيةً في مواجهة العرض القائم. فالعقيدة ليست ذكرى جميلة عن مواقف السلف، بل قرارٌ يتجدد عند كل فتنة، وفي كل لحظة يُطلب فيها من المؤمن أن يقدم شيئاً من دينه ليحصل على شيءٍ من الدنيا.

وقد يبدو العرض الذي واجهته السورة في ظاهره صغيراً أو مؤقتاً: عبادةٌ متبادلة، أو تجربةٌ محدودة، أو تقاربٌ يظن أصحابه أنه لن يضر أحداً. لكن التوحيد لا يقيس الانحراف بطول زمنه، بل بحقيقته؛ فسجدةٌ واحدة لغير الله ليست تفصيلاً زمنياً صغيراً، لأنها تنقض الأصل الذي خلق الإنسان لأجله. قد تكون لحظةٌ في حساب الساعة، لكنها انهيارٌ كامل في ميزان العقيدة. وكذلك التنازل عن حكمٍ قطعي لا يصير مباحاً لأنه مؤقت، والاعتراف للباطل لا يصير حقاً لأنه صدر تحت لافتة التقارب، والكلمة التي تنقض أصل الإيمان لا تصغر لأن حروفها قليلة.

إن الباطل يعرف أن المؤمن قد لا يقبل الانتقال الكامل إليه، ولذلك يبدأ غالباً بطلب المشاركة لا الاستسلام، ويطلب خطوةً صغيرة لا الرحلة كلها. إنه لا يقول له دائماً: اترك دينك، بل قد يقول: احتفظ بدينك، وأعطنا منه موضعاً نجلس فيه؛ اعترف لنا بشيءٍ من الحق، نمنحك مقابله اعترافاً اجتماعياً؛ خفف من وضوحك، نخفف من عدائنا؛ اجعل عقيدتك شيئاً داخلياً، تترك لك حرية الشعور بها. وهنا تكشف سورة الكافرون أن الباطل لا يحتاج منذ البداية إلى إخراج الإيمان كله من القلب، بل يكفيه أن يُدخل إلى جواره معبوداً آخر؛ لأن التوحيد

الذي يقبل الشريك لم يعد توحيداً، والقلب الذي تتعدد فيه الجهات العليا يفقد وحدته ولو بقي اسم الله على لسانه.

ومن أسرار القوة في الآية أن النبي ﷺ لم يقل: لا أعبد آلهتكم، بل قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، فالرُفُض هنا لا يقف عند أسماء المعبودات، بل يصل إلى واقع العبادة نفسها، وما تنطوي عليه من تصورات ومقاصد. وربما يغير الباطل أسماءه ويبقي جوهره؛ فيتخلص من تمثال الحجر، لكنه يرفع الإنسان أو الدولة أو السوق أو العرق أو اللذة إلى مقام المرجعية العليا. ولو تعلقَت البراءة باسم الصنم القديم وحده لأمكن للوثنية أن تعود بأسماء حديثة، لكن القرآن يلاحق حقيقتها تحت كل اسم: أن يُمنَح غير الله ما هو من خصائص الله، وأن يصبح القلب موزعاً بين أربابٍ متشاكسين.

ثم تنتقل السورة من بيان موقف الرسول ﷺ إلى كشف موقفهم هم: ﴿وَلَا أُنَمُّ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. وهنا لا تكتفي السورة بأن تقول إن الطرفين يعبدان معبوداتٍ مختلفة، بل تكشف أن عبادة المشركين ليست عبادةً لله على الحقيقة، وإن كانوا يعترفون بوجوده، وينسبون إليه خلق السماوات والأرض، ويتقربون بزعمهم إلى أصنامهم لتقربهم إليه. فقد كانوا يذكرون الله، ويحلفون به، ويقولون بأنه الخالق، لكنهم لم يفرده بالعبادة، والعبادة التي يدخلها الشرك لا تبقى توحيداً مجرد أن اسم الله حاضرٌ فيها.

كان الخلاف إذن أعمق من أن يقال: هم يعبدون الله بطريقتهم، ومحمد ﷺ يعبد به بطريقته؛ لأن الله لا يُعبد بالأهواء، ولا بالطريقة التي يخترعها الإنسان ثم يطلب من ربه أن يقبلها، وإنما يُعبد بما شرع، على أصل الإخلاص له وحده. إن المعبود الحق واحد، لكن التصور الفاسد عنه قد يجعل صاحبه لا يعبد الحقيقة التي جاء بها الوحي، بل يعبد صورةً صنعتها أوهامه، ثم أطلق

عليها اسم الله. فليس كل من نطق باسم الله موحدًا، كما أن ذكر الخالق في منظومة وثنية لا يحول الوثنية إلى إيمان.

وتضع الآية أمامنا قاعدةً جليلة: لا تتحقق العبادة بمجرد القصد الذاتي. قد يكون الإنسان مخلصًا لعادته، شديد التعلق بمعبوده، مستعدًا للتضحية من أجله، لكن صدق الشعور لا يصحح خطأ الوجهة. إن المسافر قد يكون صادق العزم، سريع الخطوات، كثير الاحتمال، لكنه كلما أسرع في الطريق انخطأ ازداد بعدًا عن الغاية. وكذلك العبادة لا يكفي فيها الحماس، بل لا بد أن يكون المعبود هو الله وحده، وأن تكون العبادة على ما شرعه، وأن يكون القلب مخلصًا له. فقبول العمل يقوم على إخلاص القصد وموافقة الهدى؛ وإذا غاب أحدهما لم يتحول الباطل إلى حق بسبب حرارة العاطفة.

إن المشركين لم يكونوا ينكرون الله إنكارًا كاملاً، لكنهم لم يعرفوا مقتضى الإقرار به؛ فقد جعلوا له شركاء، وتصوروا أن قربهم منه لا يتم إلا عبر آلهتهم، وأعطوا غيره حقًا في الدعاء والنذر والخوف والرجاء. ولذلك جاء قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ليهدم الوهم الذي يصنعه التشابه اللفظي. قد يجتمع اسمان في الكلام، لكنهما يفترقان في الحقيقة؛ وقد يقول فريقان «الله» بينما يثبت أحدهما له الوجدانية والكمال، ويجعل الآخر معه شركاء ووسطاء يملك لهم من خصائص العبادة ما لا يكون إلا له. ليست القضية اشتراكًا في المفردة، بل استقامة المعنى الذي تدل عليه المفردة.

وتكشف الآية أيضًا أن العبادة ليست مجموعة طقوسٍ يمكن فصلها عن التصور؛ فكل عبادة تنشأ عن معرفةٍ معينة بالمعبود. من عرف الله ربًا واحدًا كاملاً غنيًا عن خلقه، قريبًا يجيب دعاء من دعاه، لم يجعل بينه وبينه آلهةً يعبدها لتقربه إليه؛ ومن عرف أنه وحده يملك الضر والنفع لم

يوزع خوفه ورجاءه على مخلوقات عاجزة؛ ومن عرف أنه الحكيم العليم لم يجعل حكم الهوى أو العرف فوق حكمه. ولذلك فإن فساد العبادة يبدأ غالباً من فساد المعرفة، وإصلاح السجود يبدأ من إصلاح التصور عن الله.

إن سورة الكافرون لا تقبل المعادلة السطحية التي تقول: ما دمنا جميعاً نؤدي شعائر دينية فنحن في طريق واحد. فليس كل خشوع هدى، ولا كل دمة عبادة صحيحة، ولا كل محراب يتجه إلى الله، ولا كل تضحية مقبولة. قد يخشع الإنسان لوهم صنعه بنفسه، وقد يبكي أمام صنم، وقد يبذل عمره في نصرة باطل؛ والعاطفة مهما بلغت لا تنشئ الحقيقة، بل تحتاج إلى نور الحقيقة كي تهتدي. إن الإيمان لا يحتقر المشاعر، ولكنه لا يجعلها حكماً على العقائد؛ فالحق حق لأنه وافق خبر الله، لا لأنه أثار في النفس إحساساً قوياً.

وفي قوله: ﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ تعظيم لشأن المعبود من جهة السياق، وتركيز على مقابلة العبادة بالعبادة؛ أي إن حقيقة ما أتوجه إليه بالعبادة مخالفة لحقيقة ما تتوجهون إليه. وقد جاء التعبير متناظراً ليقم المقابلة بأوضح صورة: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ في جهة، و﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ في الجهة الأخرى؛ وبين الجهتين نفيان يمنعان امتزاجهما: ﴿ لَا أَعْبُدُ ﴾ و﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴾. وكأن السورة ترسم بالكلمات طريقين متباعدين، ثم تزيل الجسر الوهمي الذي أراد المساومون بناءه بينهما.

وقد يُسأل: كيف يقول القرآن لهؤلاء: ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾، وقد دخل كثير من أهل مكة بعد ذلك في الإسلام وعبدوا الله وحده؟ والجواب أن الخطاب يصف حال المخاطبين عند إصرارهم على الشرك وعرضهم للمساومة، ويتجه في سياقه إلى الرؤوس المعاندين الذين استقر موقفهم من الرسالة، كما يحمل معنى أن عبادتهم القائمة على الشرك ليست عبادة للمعبود الذي يعبد الرسول عبادة توحيد خالص. فالآية ليست حكماً بأن كل كافر سيبقى على كفره مهما

تاب، بل إن القرآن نفسه فتح أبواب التوبة، وتحوّل به مشركون إلى أئمة هدى؛ وإنما هي نفى حقيقة الاشتراك الذي زعموه ما داموا مقيمين على دينهم ومنهج عبادتهم.

وهذه الدقة ضرورية؛ لأن السورة ترفض الذوبان، لكنها لا تنفي إمكان الهداية. تفصل بين الطريقين، لكنها لا تمنع المسافر من أن يغادر طريق الباطل إلى طريق الحق. تقول للكافر: أنت الآن لست على ما أنا عليه، لكنها تدعوه في مواضع القرآن كلها إلى أن يصبح من أهل الإيمان. إن البراءة من الكفر لا تعني اليأس من الكافر، ووضوح الحكم لا يعني إغلاق باب الرحمة؛ بل ربما كانت أوضح كلمة في بيان ضلاله هي أصدق كلمة تفتح عينيه على الحاجة إلى النجاة.

كما أن قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ينزع من المؤمن وهماً خطيراً: أن يستطيع إرضاء الجميع إذا خفف العبارة. فالمشكلة ليست دائماً في طريقة عرض الحق، بل قد تكون في أن الباطل لا يريد الحق أصلاً. وربما استنزف المؤمن نفسه في محاولة صياغة إيمانه بطريقة لا تزج من يرفضون أصل الإيمان، فيحذف اليوم حكماً، وغداً معنى، وبعد غدٍ حداً، ثم يكتشف أن المطلوب لم يكن تهذيب لغته، بل تفريغ عقيدته من مضمونها. إن الحكمة مطلوبة، والرفق أصل عظيم، لكنهما لا يعنيان الاعتقاد بأن كل خصومة يمكن حلها بتغيير المفردات؛ فهناك اقتراق حقيقي لا يزيله جمال التعبير، لأن أحد الطريقين يريد عبادة الله وحده، والآخر يريد الاحتفاظ بحق الشركاء في القلب والحياة.

ومن هنا تمنح الآياتان المؤمن راحةً داخلية عميقة؛ فهو ليس مطالباً بأن يجعل عقيدته مقبولةً عند كل أحد، بل أن يبلغها بالحق والعدل والحكمة. الهداية بيد الله، والقلوب لا يملكها الداعية، والحق لا يصير ناقصاً لأن إنساناً رفضه. ما أرهق كثيراً من النفوس أنها جعلت قبول الناس معياراً لصدقها، فإذا أعرضوا راجعت ثوابتها بدل أن تراجع أسلوبها فقط، وإذا غضبوا شعرت

أن الحقيقة نفسها تحتاج إلى الاعتذار. أما السورة فتدّ المؤمن إلى موقعه الصحيح: اعبد الله، وبين طريقه، وأحسن إلى الخلق، ثم لا تحمل نفسك عبء تحويل الباطل إلى شيء يرضى عن الحق.

إِنْ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ تحرر موقف المؤمن من ضغط الخارج، وإن ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ تحرره من الوهم الداخلي بأن الفارق شكليّ يمكن تجاوزه. الأولى تقول: لن أدخل في عبادتكم، والثانية تقول: ولا عبادتكم القائمة على الشرك هي عبادتي. الأولى تحمي الفعل، والثانية تحمي المفهوم؛ الأولى تمنع المشاركة العملية، والثانية تمنع الخلط المعرفي؛ وبهما يكتمل سور التوحيد حول القلب، فلا يخني الجسد لغير الله، ولا يمنح العقل الباطل اسم الإيمان.

وحين تستقر هاتان الآيتان في النفس، يصبح المؤمن أكثر صفاءً في علاقته بالناس؛ لأن وضوح الحدود يخفف النفاق. إنه لا يحتاج إلى كراهية المخالف ليحافظ على إيمانه، ولا إلى مدهنته كي يحسن إليه. يعرف موضع الاختلاف، فلا يخفيه، ويعرف حق الإنسان، فلا يظلمه. ويستطيع أن يجلس مع الناس بقلبٍ رحيم وعقيدة واضحة، وأن يتمنى لهم الهداية دون أن يشهد بصحة باطلهم، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن دون أن يجعل الحق والباطل رأيين متساويين.

إن التوحيد لا يجعل صاحبه ضيقاً، بل يجعله مستقيماً؛ والفرق بين الضيق والاستقامة أن الضيق يعجز عن رؤية الآخرين، أما الاستقامة فتراه وتعدل معهم، لكنها لا تنحرف عن طريقها لتسبهم. وقد جمعت السورة هذا كله في جملتين قصيرتين: رحابة الخلق لا تعني تعدد المعبود، والعدل مع الإنسان لا يعني الاعتراف بصحة معتقده، والسلام في المجتمع لا يحتاج إلى خيانة الحقيقة، بل يحتاج إلى أن يعرف كل طرفٍ ما يعتقد، وأن يتعامل مع الآخر بلا إكراه ولا غدر ولا عدوان.

وهكذا تقف الآيتان كمرآة أمام كل قلب: ما الذي أعبدته حقاً؟ لمن تكون كلمتي الأخيرة حين تتعارض الأوامر؟ من الذي أخشى غضبه أكثر؟ ولأجل من أتنازل وأصبر وأعمل؟ هل الله هو المعبود في محرابي فقط، أم هو المعبود في قراري وخوفي ورجائي وميزاني الأخلاقي؟ إن السورة لا تسمح لنا أن نحصر الشرك في أصنام قریش، ثم نغادرها مطمئنين إلى توحيدنا؛ إنها تدفعنا إلى تفتيش الزوايا الخفية في النفس، حيث قد يقيم صنمٌ بلا اسم، ويتلقى من الخوف والطاعة والتعظيم ما لا ينبغي أن يكون إلا لله.

فإذا خرج الإنسان من هذه المحاسبة وهو يقول بصدق: ﴿لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، لم تكن كلمته خصومةً مع العالم، بل ولادةً جديدةً لحريته؛ لأنه ردَّ الأشياء كلها إلى أحجامها، وأنزل المخلوقات من عروشٍ لم تُخلق لها، وجمع قلبه بعد تشتته، وأصبح له مركزٌ واحد لا يتبدل بتبدل الناس. عندئذٍ لا يخاف أن يكون قليلاً، ولا تغريه كثرة السائرين في الجهة الأخرى، ولا يحتاج إلى أن يستعير من الباطل شرعيته؛ فقد عرف أن الله وحده يكفي قلباً عرفه، وأن من وجد المعبود الحق هانت عليه كل المعبودات الزائفة.

الفصل الثالث

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾

حين لا يكتفي التوحيد برفض اللحظة، بل يغلق أبواب المساومة في الأزمنة كلها كان يكفي في ظاهر الكلام أن تقول السورة: ﴿لَا أَعْبُدُ مَّا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾، فقد بدا أن الموقف قد حُسم، وأن الحد الفاصل بين العبادتين قد رُسم، وأن العرض الذي تقدمت به قريش قد رُفض بوضوح لا يحتمل التأويل؛ لكن السورة تعود فتقول: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾، فتكرر المعنى في بناءٍ جديد، لأن الباطل إذا واجه رفضاً واحداً حاول أن يعيد الدخول من نافذة الزمن، أو من احتمال تغير الموقف، أو من تفسير العبارة على أنها رفضٌ مؤقت يمكن أن تبدله الضغوط والمصالح.

إن المساوم لا يسمع «لا» كما يسمعها صاحب المبدأ؛ فهو يظنها بدايةً لرفع الثمن، أو مناورةً تنتظر عرضاً أفضل، أو انفعالاً سيهدأ مع الأيام، أو موقفًا حادًا ستلينه الحاجة. ولذلك لم تترك السورة لـ«لا» الأولى أن تُفهم على أنها رفض اللحظة فحسب، بل دعمتها بنفي آخر ينتقل من الفعل المتجدد: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾، إلى الوصف الثابت: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾، فكأنها تقول: ليس امتناعي حادثةً عارضةً يمكن للزمن أن يحوها، ولا ردًا تفاوضيًا يمكن تحسين شروطه، بل هو حقيقةٌ مستقرة في هويتي ما دمت عبدًا لله، وما دام التوحيد هو الأصل الذي تقوم عليه رسالتي.

وثمة فرقٌ لطيفٌ بين أن يقول الإنسان: لا أفعل هذا، وبين أن يقول: لستُ فاعلاً لهذا؛ فالأولى تنفي وقوع الفعل، والثانية تصف الذات بأنها بريئةٌ من الدخول في صف أصحابه. ولهذا

جاء قوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ في جملة اسمية توحى بالثبات والاستقرار، بعد قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ في جملة فعلية تتصل بالفعل المتجدد؛ فاجتمع نفي الممارسة ونفي الهوية، ونفي الحاضر ونفي التحول المنتظر، ونفي أن تقع العبادة الباطلة من النبي ﷺ ونفي أن يدخل في عداد العابدين لها.

إن قريشاً لم تكن تريد من النبي ﷺ كلمةً نظريةً في مجلس، وإنما كانت تطمح في أن يتحول الرفض مع الزمن إلى مشاركة، وأن يفتح التعب والتضييق والحصار داخل الموقف ثغرةً صغيرة. وكانوا يعرفون أن الطريق الطويل قد يُضعف من لم تُبنِ مواقفه على يقين؛ لذلك جاءت السورة تبني الثبات قبل امتداد الطريق، وتعلن أن الأيام لن تفعل بالتوحيد ما عجز العرض الأول عن فعله. قد ننتغير الأحوال، وقد يشتد الأذى، وقد يطول انتظار النصر، لكن المعبود لا يتغير، والحقيقة لا تبدل، والعبد لا يجعل مرور الزمن حجةً على نقض عهده مع الله.

وفي قوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ حضورٌ بارز للضمير ﴿أنا﴾، مع أن صيغة الفعل كانت تستطيع أن تدل على المتكلم من غير التصريح به. وهذا الإظهار يضع الذات المؤمنة كلها في الموقف؛ فلا يكون الرفض صادراً عن اللسان وحده، بل عن الهوية والضمير والإرادة والتاريخ المقبل. إنني أنا، بهذا القلب الذي عرف الله، وبهذه الرسالة التي حملتها، وبهذه العبودية التي صاغت وجودي، لا يمكن أن أكون عابداً لما عبدتم. ليست القضية جملةً أقولها ثم أعود إلى حياة تناقضها، بل أنا نفسي قد تشككت بالتوحيد حتى أصبحت البراءة من الشرك وصفاً من أوصافي. وهذا لا يعني تعظيم «الأنا» في مقابل الله؛ بل هو أشرف صور تحررها من تضخمها، لأن النبي ﷺ لم يقل «أنا» ليعلن استقلاله عن ربه، وإنما قالها امتثالاً لأمر ربه: ﴿قُلْ﴾. إنها «أنا» العبودية، لا «أنا» الاستكبار؛ «أنا» التي تعرف حدها، وتعلن أنها لا تملك أن تغير حكم الله، ولا أن تنصرف في حقه، ولا أن تجعل نفسها مركزاً للحقيقة. وما أوسع الفرق بين ذاتٍ تقول: أنا

أفعل ما أشاء، وذاتٍ تقول: أنا لا أعبد إلا الله؛ الأولى تجعل هواها إلهًا، والثانية تحرر نفسها من هواها بردها إلى ربها.

ثم يقول تعالى: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ بصيغة الماضي، بعد قوله أولاً: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ بصيغة المضارع. وهذا الانتقال يوسع مساحة البراءة؛ فلا يشمل معبوداتهم التي يتعلقون بها في لحظة الخطاب وحدها، بل يمتد إلى ميراث العبادة الجاهلية الذي ورثوه عن آبائهم، وإلى كل الصيغ التي مارسوا بها الشرك، وإلى ذلك التاريخ المتراكم الذي أرادوا أن يجعلوا قدمه دليلاً على صحته. فكأن المعنى: لا أعبد الآن ما تعبدون، ولست منتمياً إلى ما عبدتموه من قبل، ولا يصنع امتداد باطلكم في التاريخ شرعيةً تجربني على احترامه بوصفه حقاً.

لقد كان من أقوى حجج المشركين قولهم إنهم وجدوا آباءهم على أمة، وإنهم على آثارهم مهتدون؛ فالماضي عندهم لم يكن مجرد زمن، بل كان مصدراً للحجية. كانوا يرون أن تتابع الأجيال على عبادة الأصنام يكفي لمنحها قداسةً، وأن كثرة الآباء الذين سجدوا لها تجعل نقدها خروجاً على الجماعة والميراث. فجاء القرآن ليحرر العقل من عبودية التاريخ: ليس كل ما ورثه الأبناء حقاً، ولا كل ما طال عمره في المجتمع صالحاً للبقاء، ولا تصبح الخرافة عقيدةً صحيحةً لأنها أصبحت عادةً قديمة.

إن التاريخ يُحترم بما يحمله من الحق، لا لمجرد أنه تاريخ؛ والآباء يُعرف فضلهم، لكنهم لا يُجعلون معصومين، والموروث يُفهم ويُفحص بميزان الوحي، لا أن يُجعل ميزاناً يحاكم الوحي. فكم من باطلٍ نجا قروناً لأن الناس خافوا سؤالاً واحداً: لماذا نفعل هذا؟ وكم من وثنٍ لم يكن ليبقى لولا أن كل جيلٍ سلّمه إلى الجيل التالي بوصفه شيئاً لا يجوز الاقتراب منه. إن سورة الكافرون تقطع سلسلة الوراثة العمياء حين يقول المؤمن: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾؛ أي إن قدم الباطل لا

يغريني، وعدد الذين مارسوه لا يخيفني، وحضور الآباء في الذاكرة لا يجعلني أضعهم فوق هداية الله.

وليس رفض عبادة الآباء انتقاصاً من حقوقهم، بل وضعٌ لهم في منزلتهم البشرية؛ يحبهم الإنسان، ويبرهم، ويستغفر للمؤمن منهم، ويحفظ فضلهم، لكنه لا يمنحهم عصمةً لم يمنحها الله لهم. إن من أخطر صور العقوق المعنوي أن يكرر الابن خطأ أبيه باسم الوفاء له، كأن أفضل ما يقدمه للماضي أن يمنع من أن يُنقد. أما الوفاء الحقيقي للإنسان فهو أن تحفظ خبره، وتسترشد بتجربته، وتنعظ بخطئه، ولا تجعل سقوطه حفرةً مقدسةً يجب على الأجيال كلها أن تسقط فيها. وقد يحتمل التعبير، في وجهٍ من وجوه البيان التي ذكرها أهل التفسير، معنى البراءة من طريقتهم في العبادة نفسها؛ فكأن ﴿مَا عَبْدْتُكُمْ﴾ تنسع لمعنى: لا أعبد عبادتكم، ولا أسلك سبيلكم في التقرب، ولا أخلط ما شرعه الله بما ابتدعتموه. وبهذا لا يقتصر الفرق على ذات المعبود، بل يشمل منهج العبادة أيضاً؛ لأن الله لا يُعبد بالشرك، ولا بالأهواء، ولا بما يبكره الإنسان من عند نفسه ثم ينسبه إلى الدين. فالعبادة حقٌّ لله في غايتها، وحقٌّ له في صورتها: هو وحده المعبود، وهو وحده الذي يبين لعباده كيف يعبدونه.

وعلى هذا يلتقي المعنيان في حقيقةٍ واحدة: لا مشاركة في المعبود، ولا مشاركة في العبادة؛ لا نسجد لما تسجدون له، ولا نعبد الله بالطريقة التي خلطتم فيها حقه بباطلكم. إن التوحيد ليس استبدال اسم صنمٍ باسم الله مع بقاء القلب محكوماً بالمنطق الوثني نفسه، وليس إدخال اسم الله في طقوسٍ اخترعها البشر، بل هو إخلاص الوجهة واتباع الوحي. فرب إنسانٍ ترك الصنم الظاهر، لكنه أبقى داخله طريقة العابد الوثني: لا يتوجه إلى الله إلا طمعاً في منفعةٍ عاجلة، فإذا

منعها انقلب؛ ولا يقبل من الدين إلا ما وافق هواه، فإذا خالفه أعرض. هذا لم يكتمل تحرره بعد؛ لأنه غير الاسم ولم يغير بنية العبودية في قلبه.

إن عبادة الله لا تعني استعماله لتحقيق رغبات النفس، تعالى الله عن ذلك، بل تعني أن تُسلم النفس نفسها لربها، وأن تعرف أنه الحكيم حين يعطي وحين يمنع، وأن تعبده لأنه مستحق للعبادة، لا لأنك أبرمت معه صفقةً خفيةً تتوقع أن تحصل بها على ما تريد. أما الوثنية فتعامل مع المعبود بوصفه أداةً لجلب النفع ودفع الضرر؛ فإذا خاب ظنها فيه انتقلت إلى غيره. ولذلك نتعدد آلهتها بحسب تعدد حاجاتها، بينما يجمع التوحيد القلب على الله في السراء والضراء، وفي العطاء والمنع، وفي انكشاف الحكمة واحتجابها.

وهنا يصبح قوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ إعلاناً ضد الدين النفعي الذي لا يبقى من إيمانه إلا بقدر ما يحصل من مكاسب. فالمؤمن لا يعبد الله لأن الطريق صار سهلاً، ولا يثبت لأن الناس صَفَّقوا له، ولا يحفظ مبادئه ما دامت منسجمةً مع مصالحه؛ إنه يعبد الله لأن الله ربه، والربوبية لا تتغير حين تتغير الأحوال. قد يمر به الفقر، ويصيبه المرض، ويتأخر عنه ما دعا به، ويُغلب في موقف، لكنه لا يبحث عن معبودٍ آخر؛ لأن الأشياء التي خسرها كانت عطاءات، أما الله فهو غاية القلب، وليس وسيلةً إلى غيره.

ولذلك كانت هذه الآية بناءً عظيماً للثبات؛ فهي لا تقول فقط: لن أفعل فعلتكم، بل تقول: لن أصبح ذلك الإنسان الذي يفعلها. وكم هو مهم أن يحمي المرء هويته قبل أن تحضر الفتنة؛ لأن القرارات الكبرى إذا تُركت حتى لحظة الإغراء قد تعصف بها الحاجة. أما حين يحسم الإنسان من قبل مَنْ هو، وما الذي لا يمكن أن يكونه، فإن كثيراً من المعارك تُحسم داخله قبل أن تبدأ خارجه. يقول المؤمن لنفسه: أنا عبد الله، ولهذا لا أبيع كلمة الحق، لا لأن الثمن قليل، بل لأن

الشيء المعروض للبيع ليس ملكي؛ ولا أخون الأمانة، لا لأن الخيانة غير مربحة، بل لأنني لست خائناً؛ ولا أسجد لغير الله، لا لأن الظروف لا تضطرنني، بل لأن هويتي قد حُسمت.

إن الإنسان الذي يبني مواقفه على المنفعة وحدها سيجد دائماً منفعةً أكبر تدعوه إلى نقضها، والذي يرفض الباطل لأنه لم يقدم له ثمناً مناسباً قد يقبله حين يرتفع الثمن، أما الذي يرفضه لأنه باطل فقد خرج من السوق كله. وهذا هو الفرق بين موقفٍ تفاوضي وموقفٍ عقدي؛ الأول يسأل: ماذا سأحصل إذا وافقت؟ والثاني يسأل: هل يرضى الله عن موافقتي؟ فإذا عرف الجواب انتهت المساومة، ولو اجتمعت خزائن الأرض في كفة العرض.

ثم تعود السورة مرةً ثانية إلى الجملة نفسها: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. وهذا التكرار ليس زيادةً لفظية، فالقرآن منزّه عن الحشو، وإنما هو تثبيتٌ للمفاصلة من جهتها الأخرى، وإغلاقٌ لباب الوهم الذي قد يتسلل بعد كل نفي. لقد ادعى المشركون إمكان الجمع؛ فرد القرآن أولاً بأن الرسول لا يعبد ما يعبدون، ثم بأنهم ليسوا عابدين ما يعبد، ثم أعاد نفي دخوله في عبادتهم، وأعاد نفي دخول عبادتهم في عبادته؛ فكأن كل جملة تواجه ضلعاً من أضلاع الصفة، حتى تنهدم الصفة كلها ولا يبقى منها احتمال قائم.

كان عرضهم يقوم على التبادل: نعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد. فجاء الرد في بناءٍ متبادلٍ كذلك، لكنه بدل أن يثبت المشاركة نفاهاً مرتين: أنا لا أعبد ما تعبدون، وأنتم لا تعبدون ما أعبد؛ وأنا لست عابداً ما عبدتم، وأنتم لستم عابدين ما أعبد. وبذلك يطابق البيان مواضع الخلل في عرضهم، فلا يترك جزءاً منه بلا جواب. إنهم اقترحوا تبادل العبادات في أزمنة مختلفة، فجاءت السورة تنفي التبادل في الزمن الحاضر، وتنفيه بوصفه هويةً مستقرة، وتنفي أن يؤدي اختلاف الزمن إلى تغير الحقيقة.

وقد يرى بعض أهل البيان في التكرار توكيداً مقصوداً؛ لأن المقام مقام قطع لا مقام اختصار. وللتوكيد هنا وظيفة نفسية وفكرية؛ فالقضايا التي تُعرض باستمرار لضغط التميع تحتاج إلى أن تُتكرر حتى تستقر. ليست كل إعادةٍ عجزاً عن الإضافة، فقد يكون التكرار هو الإضافة المطلوبة حين يكون الخطر نابغاً من قابلية الإنسان للنسيان أو التأويل أو التراجع. الأم تكرر تحذير طفلها حين يكون الخطر عظيماً، والقائد يكرر أمره حين تكون المعركة حاسمة، والوحي يكرر النفي هنا لأن القضية هي أصل الدين الذي إن دخله الشرك انهدم.

إن النفس قد تقول «لا» مرةً تحت وهج الحماسة، ثم تضعف حين يطول الطريق؛ ولذلك تحتاج إلى أن تعيد على نفسها عهداً. ومن هنا كانت سورة الكافرون تُقرأ مراراً في حياة المسلم، وفي بعض السنن النبوية مع سورة الإخلاص، كأنها تجدد البراءة والإثبات: براءةً من عبادة غير الله في سورة الكافرون، وإثباتٌ لوحداية الله وكلامه في سورة الإخلاص. فالقلب لا يكفيه أن يخرج من الباطل مرةً واحدة، بل يحتاج إلى حراسة خروجه؛ لأن الأصنام التي سقطت من أمام العين قد تحاول العودة في صورة رغبة أو خوف أو إعجاب أو تبعية.

والتكرار في السورة يشبه ضرباتٍ متتابعةً على قيدٍ قديم؛ كل ضربةٍ تكسر جزءاً من الوهم: الأولى تكسر وهم المشاركة الحاضرة، والثانية تكسر وهم أنهم يعبدون الله العبادة نفسها، والثالثة تكسر وهم تغيير النبي ﷺ في المستقبل، والرابعة تكسر وهم إمكان إدخال شركهم في اسم التوحيد. وحين تنتهي الضربات يكون القلب قد خرج من القيد كله، لا من حلقةٍ واحدة منه. وفي إعادة قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ تنبيهٌ إلى أن مجرد عرضهم عبادة الله زمناً لا يجعلهم عابدين له ما داموا يحتفظون بأصنامهم. فالله سبحانه لا يقبل أن يكون واحداً في قائمة المعبودات، ولا أن يُمنح يوماً وتمنح الآلهة الأخرى أياماً؛ إنه الإله الحق الذي لا شريك له،

وعبادته تقتضي خلع ما سواه من مقام الألوهية. ولو سجد المشرك لله ثم عاد يسجد لصنمه، لم يكن سجوده الأول توحيداً، لأن التوحيد ليس توزيعاً أكثر عدلاً للعبادة بين المعبودات، بل أفراد الله بها كلها.

وهذه حقيقة لا بد أن يستعيدها القلب كلها أغراه الجمع بين المتناقضات؛ فليس الإيمان أن تجعل لله مساحةً داخل حياتك، ثم تترك المساحات الأخرى لهوى النفس وضغط المجتمع. الله سبحانه رب الحياة كلها، والعبودية له تشمل الضمير والسلوك والغاية والميزان؛ ليست بمعنى أن كل تفصيلٍ دنيوي يتحول إلى طقس، بل بمعنى أن كل الحياة تدخل تحت سلطان مرضاته، حتى المباحات يمكن أن تصبح عبادةً بالنية الصالحة، وحتى الشعائر قد تفقد روحها إذا انفصلت عن الإخلاص.

قد يصلي الإنسان لله، ثم يجعل الحكم النهائي في أخلاقه لمصلحته؛ وقد يصوم لله، ثم يبيع ذمته لرضا صاحب سلطان؛ وقد يتلو القرآن، ثم إذا اصطدمت دلالته بعبادته قدّم العادة. وهنا تكشف السورة أن التوحيد لا يقبل التجزئة؛ لأن المعبود الذي تتجه إليه الجبهة في الصلاة ينبغي أن تتجه إليه الإرادة عند الاختيار. ليس معنى ذلك عصمة المؤمن من الضعف والمعصية؛ فالمؤمن يخطئ ويتوب، وقد يغلبه هواه في لحظة، لكن الفرق أن المعصية عنده انحرافٌ يعترف به، لا معبودٌ يمنحه حق التشريع، ولا منهجٌ يعيد به تعريف الحق حتى يوافق رغبته.

إن أخطر ما يصيب القلب ليس أن يزل، بل أن يحول زلته إلى دين؛ وليس أن يضعف أمام الهوى، بل أن يمنح الهوى حق إعلان الحلال والحرام داخله. فالعاصي الذي يعلم أنه عصي لا يزال يعرف القبلة وإن تعثر في الطريق، أما من أعاد تشكيل الدين كي يبارك تعثره فقد بدأ ينقل

المرجعية من الوحي إلى ذاته. وسورة الكافرون تحرس المرجعية قبل أن تحاسب التفاصيل: من المعبود؟ ومن الذي يملك الكلمة العليا؟ ومن الذي يعود إليه الإنسان حين تتنازع فيه الرغبات؟ لقد أرادت قریش ديناً لا يهدد بنيتها؛ إلهاً يمكن أن يضاف إلى آلهتها، ورسولاً يمكن أن يدخل في طبقة زعمائها، وقرآنًا يمكن أن يصبح صوتاً روحياً داخل نظامها دون أن يهدمه. لكن الإسلام لم يأت ليضيف طقساً جديداً إلى الجاهلية، بل ليعيد بناء الإنسان والعالم من مركز التوحيد. لم يقل للأصنام: افسحوا لله مكاناً بينكم، بل أعلن أنها كلها باطلة؛ ولم يقل للطغيان: احتفظ بسطانتك ودع الناس يصلون، بل حرر الضمير من الخضوع المطلق لغير الله؛ ولم يقل للهوى: خذ من الحياة خمسة أيام وارك للعبادة يومين، بل جعل الحياة كلها لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذا هو السر الذي جعل أهل الجاهلية يفهمون خطورة «لا إله إلا الله» أكثر مما يفهمها بعض من يرددونها بلا أثر؛ فقد أدركوا أنها ليست كلمةً تزيد عدد الآلهة إلهاً، بل كلمةٌ تنزع الألوهية عما سواه، وتسقط الامتيازات التي قامت على خدمة الأصنام، وتحرر الإنسان من الخضوع للكهنة والزعماء والعادات المخالفة للوحي. لقد فهموا أن «إلا الله» لا تستقيم إلا بعد «لا إله»، وأن الإثبات لا يصفو دون نفي، وأن القلب لا يجتمع فيه عرش الله وعروش الشركاء. ومن هنا كانت سورة الكافرون تمثل جانب النفي في بناء التوحيد؛ تبقى الساحة قبل أن تُقام فيها العبودية الخالصة، وتطرد المعبودات المزيفة حتى لا تزاحم معرفة الله. وليس النفي في الإسلام عدماً أو فراغاً، بل هو تطهيرٌ يمهد لامتلاء؛ كمن يزيل الدخان ليدخل النور، ويكسر القيد لتتحرك القدم، ويطرد الضجيج ليسمع النداء. فحين يقول المؤمن: لا أعبد ما تعبدون، لا

يصبح بلا غاية، بل تصفو غايته؛ ولا يصبح بلا سيد، بل يتحرر من السادة الكاذبين ليكون عبداً للرب الحق.

إن الآيتين الرابعة والخامسة تمنحان التوحيد امتداده الزمني؛ فلا يكون موقفاً صالحاً للحظة الحماسة فقط، بل عهداً يواجه تقلب الأيام. فقد يبدأ المرء قوياً ثم يتعب، واضحاً ثم تحصره التأويلات، زاهداً في رضا الناس ثم يشتاق إلى تصفيقتهم، فتأتي ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبْدْتُكُمْ﴾ لترده إلى هويته: أنت لم تقل «لا» لأنك لم تجد ثمناً، بل لأنك عرفت الله؛ وما عرفه القلب بالله لا ينبغي أن تنقضه تقلبات الطريق.

إن الثبات ليس جموداً على العادات، بل وفاءً للحقيقة؛ فقد يغير المؤمن وسائله وأساليبه وتقديراته البشرية، ويراجع اجتهاده إذا ظهر له خطؤه، لكنه لا يراجع أصل التوحيد كأنه رأي بشري. المرونة تكون في مساحة الوسائل، أما المساومة على المعبود فهدمٌ للغاية نفسها. والحكمة أن تعرف ما الذي يمكن تغييره وما الذي إن غيرته لم تبق أنت؛ فسفينة الدعوة تستطيع أن تعدل مسارها لتجنب صخرة، لكنها إن ألقت بوصلتها في البحر لم تعد تعرف إلى أين تسير.

وهكذا تنهي الآيتان كل انتظارٍ مشركٍ لانهايار الموقف: لن يعبد النبي ﷺ ما عبدوا، ولن تصبح عبادتهم المختلطة عبادةً لله الذي يعبد، ولن يصنع الماضي حجةً على الوحي، ولن يصنع المستقبل باباً للترجع. لقد حُسم الأمر في الضمير قبل أن يُحسم في موازين القوة، وسقطت الأصنام معنوياً قبل أن تُحطم يوم فتح مكة؛ لأن الوثن يبدأ بالموت حين يوجد قلبٌ واحد يقول له في يقين: لستُ عابداً.

وما أعظم الإنسان حين يتحرر من الحاجة إلى عبادة ما صنعه الناس؛ حين لا يخضع لماضيهم لمجرد أنه ماضٍ، ولا لحاضرهم لمجرد أنهم أكثرية، ولا لمستقبلٍ يعدونه به إن تنازل. إنه يقف في

الزمن كله مع الله: ينظر إلى الماضي بميزان الوحي، ويعيش الحاضر في طاعته، ويستقبل المستقبل متوكلاً عليه. وحينئذ لا تعود حياته سلسلة ردود أفعالٍ على ضغط المجتمع، بل تصبح سيرة عهدٍ واحد لم يتغير: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

الفصل الرابع

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

الكلمة الأخيرة حين تنتهي المساومة ويبقى كل إنسان مسؤولاً عن الطريق الذي

اختاره

بعد أربع جملٍ متتابعةٍ من النفي، وبعد أن أغلقت السورة كل منفذٍ يمكن أن تعود منه المساومة، تأتي الآية الأخيرة في صيغةٍ موجزةٍ هادئةٍ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. لا صخب فيها، ولا شتيمة، ولا تهديدٌ بشري، ولا محاولة لإجبار المخاطبين على قبول ما رفضوه؛ إنما هي الجملة التي يقولها الحق بعد أن استوفى البيان، وأقام الحد، وأبطل الخلط، وترك كل إنسانٍ أمام اختياره ومسؤوليته. وكأن السورة بدأت بمواجهةٍ كان المشركون يريدون إدخالها في سوق التفاوض، ثم انتهت بإخراج الدين كله من ذلك السوق: دينكم لكم، وديني لي؛ فلا أنا أبيع شيئاً منه، ولا أنتم تستطيعون إدخال شركم فيه، ولا اسم التقارب قادرٌ على أن يصنع من التوحيد والوثنية عقيدةً واحدة.

إن هذه الآية ليست صيغةً مصالحةً بين حقٍّ وباطل، بل صيغة فصلٍ بينهما؛ وليست اعترافاً بأن كل طريقٍ صحيح، بل إعلانٌ بأن الطريقين مختلفان اختلافاً لا يمكن ستره بالجمالات. فلو كانت السورة تقر بصحة دينهم لما سبقت الآية بأربع عباراتٍ تنفي الاشتراك في العبادة، ولما افتُتحت بوصفهم: ﴿الْكَافِرُونَ﴾، ولما ظل القرآن كله يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم عاقبة الشرك. إن السياق يمنع أن تتحول الخاتمة إلى شهادة صحةٍ لما نفتته السورة من أولها؛ فهي لا تقول:

دينكم حقُّ لكم، وديني حقُّ لي، وإنما تقول: ما اخترتموه من الدين فعليكم تبعته، وما أدين الله به لا أتركه ولا أخلطه بدينكم.

وهنا ينبغي التفريق بين إقرار وجود الاختيار وبين إقرار صحة المختار؛ فقد يملك الإنسان أن يسلك الطريق الذي يريد، لكنه لا يملك أن يجعل كل طريقٍ موصلاً إلى الغاية. وقد يختار الخطأ بإرادته، لكن اختياره لا يحول الخطأ إلى صواب. إن الحرية تفسر نسبة الفعل إلى صاحبه، ولا تغير حقيقة الفعل في ميزان الله. ولذلك كان معنى الآية قريباً من تحميل كل فريقٍ مسؤولية دينه: لكم ما التزمتوه واخترتموه، ولي ما هداني الله إليه وألزمي به؛ وسيلقى كل إنسانٍ عاقبة الوجهة التي رضىها لنفسه.

إن أخطر ما يُفعل بالآية أن تُقتطع من بنائها، فتُقدّم بوصفها إعلاناً بأن الأديان كلها سواء، مع أن السورة كلها نزلت لهدم فكرة المزج بينها. لقد عرضت قريش نوعاً من التعددية التعبدية التي يتناوب فيها الجميع على المعبودات، فجاء القرآن يرفض العرض من أساسه؛ فلا يمكن أن تكون الخاتمة قبولاً للفكرة نفسها التي بُنيت الآيات السابقة على رفضها. **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾** ليست جسراً للخلط، بل الحد الأخير الذي يمنع الخلط؛ وليست إذابةً للفوارق، بل اعترافاً واضحاً بوجودها.

غير أن هذا الفصل العقدي لا يعني إطلاق يد المؤمن في ظلم المخالف أو إيذائه؛ فالقرآن الذي يقول: **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾** هو الذي يأمر بالعدل، ويجعل البر والإحسان ممكنين مع من لم يقاتل المؤمنين، وينهى عن أن تحملنا شنانات الخصومة على ترك القسط. فالبراءة من الاعتقاد شيء، والعدل مع الإنسان شيء آخر؛ ولا يكتمل إيمان المؤمن إذا خلط بينهما. قد

يرفض عقيدة الرجل ويردها، ثم يحفظ دمه وماله وكرامته، ويصدق معه، ويفي له، وينصفه إذا ظلم؛ لأن أخلاقه ليست مكافأةً للناس على إيمانهم، بل طاعةٌ لله الذي أمره بالعدل.

وهنا تتجلى عظمة المنهج القرآني في قدرته على الجمع بين ما يفرقه الوعي المضطرب: وضوح بلا عدوان، ورحمة بلا ذوبان، وثبات بلا غدر، وتعايش بلا تنازل. أما الوعي العاجز فلا يتصور إلا أحد طرفين: إما أن يعترف بصحة باطل المخالف كي يحسن معاملته، وإما أن يظلمه كي يثبت أنه بخالفه. والقرآن يرتفع بالإنسان فوق هذا الفقر الأخلاقي؛ فيعلمه أن يقول للمخالف: إن عقيدتك ليست حقاً، ثم يكون أعدل الناس معه، لأن العدل لا يحتاج إلى الكذب على الحقيقة.

إن التعايش في الرؤية القرآنية لا يشترط توحيد العقائد، بل يشترط ضبط الحقوق؛ لا يطلب من الناس أن يتظاهروا بأنهم لا يختلفون، وإنما يطلب منهم ألا يتحول اختلافهم إلى ظلم. فالمجتمع لا يكون سليماً حين تُمحي الفروق الفكرية بالقوة، بل حين يعرف الناس اختلافاتهم، ويعبرون عنها بصدق، ثم يحتكمون في معاملاتهم إلى العدل والوفاء وعدم الاعتداء. ولذلك كانت سورة الكافرون أساساً لتعايش صادق، لا لتعايشٍ منافق؛ لأنها تحرر العلاقات من الأكاذيب المهدبة التي تخفي خصومة المعاني، ثم تضعها على أرضٍ واضحةٍ يستطيع كل طرفٍ أن يقف عليها دون أن يخون ضميره.

ويبدأ قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ بتقديم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾، ثم يقابله: ﴿وَلِيَّ دِينِ﴾، وفي هذا التقديم معنى الاختصاص والفصل: لكم دينكم الذي التزمتموه، ولي ديني الذي لا أشاركم فيه ولا أتنازل عنه. لقد صار لكل جهةٍ ما اختارته، وانقطعت صفقة التبادل التي أرادوا عقدها. لا ينتقل شيءٌ من دينهم إلى دين النبي ﷺ، ولا يستطيعون أن يطلبوا منه أن يمنح الشرك موضعاً داخل التوحيد، ولا تصبح المجاملة سبباً في إلغاء الحدود.

ولفظ ﴿دِينُكُمْ﴾ أوسع من لفظ الشعيرة أو الطقوس؛ فالدين ليس حركة يؤديها الإنسان في وقتٍ محدود، بل هو خضوعٌ ومنهجٌ ومرجعيةٌ وطريقٌ تنتظم به صلته بالمعبود وبنفسه وبالعالم. إنه الجهة التي يرد إليها حكمه، والمعنى الذي يفسر به وجوده، والميزان الذي يفرق به بين الحق والباطل، والغاية التي يتحرك نحوها. وحين تقول السورة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فهي لا تفصل بين طقسين فقط، بل بين رؤيتين للوجود: رؤية تجعل الإنسان موزعاً بين شركاء، ورؤية تجمعهم على الله؛ رؤية تستمد شرعيتها من الميراث والمصلحة والهوى، ورؤية تلتقي هداها من الوحي.

وللدين في اللسان القرآني صلةٌ كذلك بمعاني الجزاء والحساب؛ كما في ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾، وكأن وراء اختيار الدين يوماً يظهر فيه جزاؤه. وهنا يزداد معنى الآية مهابةً: لكم طريقكم الذي ستلقون عاقبته، ولي الطريق الذي ألقى الله عليه. ليست الجملة إذن انسحاباً من حقيقة المصير، بل تذكيراً خفياً بأن الاختيارات لا تنتهي عند حدود الدنيا؛ فما يختاره الإنسان ديناً يتحول في الآخرة إلى مصير. والطرائق التي تبدو في الدنيا متجاوزة لا تنتهي جميعاً إلى المكان نفسه.

إن الإنسان قد يستطيع في الدنيا أن يمنح الباطل أسماء جميلة، وأن يكسو الشرك ثوب الثقافة، وأن يسمي عبودية الهوى حريةً، وأن يجعل الخضوع للطغيان واقعيةً، لكن يوم الدين ينزع الأسماء المصنوعة ويظهر حقائق الأشياء. هناك لا ينفع أن يقول المرء: كان هذا دين آبائي، أو وجدت الناس عليه، أو خفت أن أخالف الجماعة؛ لأن المسؤولية في النهاية فردية، ولأن كل إنسان سيأتي ربه وحده. ومن هنا فإن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ ليست منحة أمانٍ للمقيم على الباطل، بل رده إلى حمله الذي اختاره: هذا دينكم، وأنتم المسؤولون عنه، فلا تجعلوا نسبه إلى الآباء أو الجماعة وسيلةً للهروب من تبعته.

أما قوله: ﴿وَلِيَّ دِينٍ﴾ ففيه من العزة ما لا يحتاج إلى صخب؛ فالنبي ﷺ كان يومئذٍ في ميزان الظاهر قليل الأنصار، محاصر الدعوة، يواجه مدينةً تُتَكَيَّ على ماضيها وأموالها وزعاماتها، لكنه يقول: ﴿وَلِيَّ دِينٍ﴾، كأن الدين وحده وطنٌ كامل، وأمةٌ حاضرة، ومستقبلٌ لا تراه العيون بعد. لم يحتج إلى اعتراف قريش حتى يثق بما معه، ولم يجعل كثرتهم دليلاً على نقصه، ولم يشعر بالوحشة لأن عبادته لا تشبه عبادتهم؛ فمن كان له دينٌ من عند الله لا يكون فقيراً ولو وقفت الأرض كلها في الجهة الأخرى.

إن من أعظم مصادر ضعف الإنسان حاجته إلى الاعتراف؛ فهو يريد أن يراه الناس، ويقبلوه، ويؤكدوا له أن موقفه معقول. وقد تتحول هذه الحاجة الطبيعية إلى بابٍ يساوم منه على ذاته، فيتنازل قليلاً حتى لا يبدو غريباً، ثم يتنازل أكثر حتى لا يُعزل، ثم يستيقظ وقد خسر الشيء الذي كان يريد من الناس أن يحترموه من أجله. أما النبي ﷺ فيقول: ﴿وَلِيَّ دِينٍ﴾؛ أي يكفيني أن هذا ديني الذي اختاره الله لي، فلا أستعير قيمته من إعجابكم، ولا أطلب من أصنامكم شهادةً بصحة توحيدِي.

وفي إضافة الدين إلى ضمير المتكلم: ﴿دِينٍ﴾ معنى الانتماء العميق، لا معنى الاختراع الشخصي؛ فهو دينه لأنه آمن به والتزمه وعاش له، لكنه ليس من صنعه، فقد بدأ الخطاب كله بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾. إنها إضافة التزامٍ وعبودية، لا إضافة ملكيةٍ وتصرف. وكان النبي ﷺ يقول: هذا ديني الذي تلقيته من ربي، ودخلت فيه بكليتي، وصار ميزان نفسي وحياتي؛ فلا أملك أن أبادله بشيء، لأنه ليس ثوباً أخلعه حين تتغير المجالس، بل عهدٌ بيني وبين الله.

وهنا تصنع السورة مفهوماً بالغ العمق للهوية الدينية؛ فالهوية ليست عنواناً يُكتب بجوار الاسم، ولا ميراثاً اجتماعياً يُستحضر عند المناسبات، وإنما دينٌ يُضاف إلى الإنسان لأنه أضاف

الإنسان كله إلى الله. يقول: ديني، لا بمعنى أنه شكله بحسب هواه، بل بمعنى أنه أصبح مسؤولاً عن الوفاء به. وكل إضافة حقيقية تستدعي تبعةً، فمن قال: هذا ديني، فعليه أن يسأل: أين أثره في رؤيتي واختياري وأخلاقي؟ وهل بقي الدين عنده اسماً يدافع عنه، أم أصبح نوراً يحاكم به نفسه قبل أن يحاكم الآخرين؟

إن أسهل ما يفعله الإنسان أن يجعل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ خطاباً للآخرين، وأصعبه أن يحقق ﴿وَلِيَ دِينٍ﴾ في نفسه. قد يبرع في وصف أديان الناس وأخطائهم، لكنه يعجز عن إقامة دينه في ضميره؛ يرفض أصنامهم، ولا يرى أصنام شهورته؛ يعيب تبعيتهم للآباء، ثم يتبع جماعته بلا بصيرة؛ يستنكر خضوعهم للكهان، ثم يمنح شخصياته المحبوبة عصمةً عمليةً لا يعترف بها نظرياً. وسورة الكافرون لا تمنح المؤمن حق المفاصلة قبل أن تتحمله أمانة العبودية؛ فالذي يقول: لي ديني، قد أعلن أمام الله أن هذا الدين سيكون مرجعه، لا مجرد رايةٍ يرفعها في وجه غيره.

ومن بلاغة الآية أنها لم تقل: لكم باطلكم ولي حقي، مع أن هذا هو مقتضى المعنى العقدي؛ وإنما نسبت إلى كل فريقٍ دينه في عبارةٍ موجزةٍ تقوم مقام البيان الأخير بعد أن اتضح الحق من أول السورة. ففي مقام الدعوة يفصل القرآن الأدلة، وقيم الحجج، ويبين فساد الشرك، أما في مقام قطع المساومة بعد وضوح المواقف فتأتي هذه الجملة القصيرة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٍ﴾. ليست كل لحظةٍ لحظة جدال؛ فقد يبلغ النقاش حدًّا لا يعود فيه التكرار بحثاً عن الحقيقة، بل محاولةً لإرهاق صاحبها حتى يتنازل. عندئذٍ تكون الحكمة أن ينهي المؤمن المساومة، لا الدعوة؛ وأن يغلق باب العبث، لا باب الهداية.

وهذا فرقٌ دقيق: السورة لم تأمر النبي ﷺ أن يكف عن دعوة المشركين إلى الإسلام، فقد ظل يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن ويرجو لهم الهداية، لكنها أمرته أن يكف عن مناقشة احتمال

المرج بين الدينين. فباب الدعوة مفتوح، وباب الصفقة مغلق؛ باب انتقاهم من الشرك إلى التوحيد مفتوح، أما باب انتقال شيء من الشرك إلى التوحيد فمغلق إلى الأبد. يمكن للشرك أن يصبح مؤمناً إذا ترك شركه، لكن الشرك نفسه لا يمكن أن يصبح جزءاً من الإيمان مهما تغير اسمه.

إن هذه القاعدة بالغة الأهمية في كل حوار: الرحمة بالإنسان لا تعني التفاوض على الحقيقة، والأمل في هدايته لا يعني إدخال باطله في دين الله. المؤمن لا يقول للمخالف: ابق على ما أنت عليه وسأغير ديني حتى نلتقي؛ بل يقول له: طريق الله مفتوح لك كما فُتح لي، فإن دخلته أصبحت أخي في الإيمان، وإن أبيت فلن أظلمك، لكنني لن أسمي ما أنت عليه حقاً كي أرضيك. ذلك أن تغيير اسم المرض لا يشفي المريض، وإقرار الضال على أن كل الجهات سواء لا يساعده على الوصول.

وفي الآية أدبٌ عظيمٌ عند انتهاء الجدل؛ فبعد أن يقول المؤمن الحق وقيم حجته، لا يلزمه أن يبقى أسير حلقة لا تنتهي من المنازعات. قد يصبح الحوار بعد وضوح الموقف تكراراً للمكابرة، أو وسيلةً لاستنزاف القلب، أو محاولةً لجذب صاحب الحق إلى ألفاظٍ ملتبسة. هنا ينسحب المؤمن بكرامة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ لا يشتم، ولا يتنازل، ولا يستجدي، ولا يحول إيمانه إلى معركة غضبٍ شخصي. يقول كلمته، ويترك للحق أثره، وللزمن عمله، والله هداية القلوب.

إن الواثق من الحقيقة لا يحتاج إلى أن يصرخ في كل لحظة؛ فالاضطراب هو الذي يرفع صوته ليخفي ضعفه، أما اليقين فيستطيع أن يكون هادئاً وحاسماً في الوقت نفسه. وقد بدأت السورة بالنداء الواضح، ومرت بالنفي المتكرر، ثم انتهت بجملَةٍ متوازنةٍ قصيرة، كأن العاصفة الفكرية كلها قد استقرت في قرارٍ داخلي لا يتزعزع. فالذي عرف أين يقف لا يظل يركض بين

المعسكرين بحثاً عن موضع يرضي الجميع؛ يقف في مكانه، ويفتح قلبه للهداية، ويغلق عقيدته أمام المساومة.

ولا تعني الآية أن الأديان مجرد شؤون شخصية لا آثار لها في الحياة؛ فالدين في القرآن ليس إحساساً خاصاً محبوباً داخل الضمير، بل مرجعية تصنع الإنسان. لكن الآية تقرر أن الإيمان لا يُنتج بالإكراه، وأن التوحيد الذي يدخل اللسان تحت الضغط دون أن يدخل القلب ليس هو الغاية. لقد رفض الإسلام أن يساوم المشركين، كما رفض أن يجعل المساومة بديلاً عنها قسراً على الاعتقاد؛ لأن العقيدة لا تولد إلا في قلب أبصر الحق واختاره. قد تُحمى الحقوق بالقانون، ويُمنع العدوان بالقوة العادلة، لكن الإيمان نفسه لا تصنعه السياط.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ تمنح كل طرف مساحة الاختيار، لكنها لا تلغي سلطان الحقيقة ولا يوم الحساب. وهذه هي المعادلة التي يضطرب فيها كثير من الفكر الحديث: إما أن يثبت حرية الاختيار فيزعم أن كل الخيارات متساوية في الحق، وإما أن يثبت وجود الحق فيظن أن له إكراه القلوب عليه. أما القرآن فيفصل بين الأمرين: الحق واحد، والإنسان مسؤول عن اختياره؛ يُدعى ويُبَيَّن له، ولا يصبح الباطل حقاً إذا اختاره، ولا يصبح الإيمان صادقاً إذا نطق به مكرهاً دون تصديق القلب.

وفي الآية كذلك حماية للدعوة من الذوبان في التحالفات المؤقتة؛ فقد يتفق المؤمن مع غيره على دفع ظلم مشترك، أو حفظ مصلحة إنسانية، أو بناء عدل اجتماعي، دون أن يعني ذلك أن العقائد قد أصبحت واحدة. يمكن أن يلتقي الناس على معروفٍ محدد مع بقاء اختلافهم واضحاً، أما الذي لا يفرق بين التعاون والتبعية فقد يبيع هويته باسم المصلحة العامة. إن سورة الكافرون لا تمنع جسور العدل، لكنها تمنع أن تُبنى تلك الجسور من حجارة العقيدة نفسها.

ولذلك يستطيع المؤمن أن يكون نافعاً لوطنه ومجتمعه والإنسانية، وأن يتعاون في الخير مع من يخالفه، وأن يدفع الظلم عن كل مظلوم، ثم يبقى واضحاً في قوله: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾. لا يحتاج حتى يخدم الناس إلى أن يتخلى عن توحيده، بل إن توحيده هو الذي يأمره بخدمتهم والعدل معهم؛ ولا يحتاج حتى يثبت رحابة خلقه إلى أن يضيق حقيقة دينه. إن أجمل ما يقدمه المؤمن للعالم ليس نسخةً باهتةً من العالم، بل نموذجاً يجمع صلابة المبدأ ونبل المعاملة.

وحين تتحول الآية إلى خلقٍ في النفس، يتوقف الإنسان عن مطاردة الناس ليحملهم على الإعجاب به، ويتوقف كذلك عن تحويل اختلافهم معه إلى حقدٍ شخصي. لهم موقفهم الذي سيحاسبون عليه، وله دينه الذي سيحاسب على الوفاء به. فلا يشغله كفر غيره عن إصلاح إيمانه، ولا تجعله براءته من باطلهم غافلاً عن باطلٍ تسلسل إلى قلبه. إنه يعلم أن أول ما يعنيه من قوله: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أن يكون للدين سلطانٌ عليه هو، لأن من أسوأ التناقض أن يطالب الآخرين باحترام حدود عقيدته بينما لا يحترمها في خلواته واختياراته.

وتأتي الآية في ختام السورة نكحاً لا يمكن فتحه لتضاف إلى الدين تنازلات لاحقة. لقد قال النبي ﷺ كلمته، وانتهى العرض، وبقيت قریش على دينها إلى أن اختار من اختار منها الإسلام، وبقي هو على دينه حتى أظهره الله. ومرت السنوات، وانقلب ميزان القوة، ودخل مكة فاتحاً، فلم يكن انتصاره ثمرة تسويةٍ عقدية، بل ثمرة ثباتٍ بدأ يوم كان مستضعفاً. لقد كان يستطيع في حساب السياسة القريبة أن يشتري هدوء مكة بتنازلٍ صغير، لكنه لو فعل لفقد الرسالة التي ستفتح مكة يوماً. وهكذا يعلننا التاريخ أن المبدأ الذي يبدو في لحظة الضعف عائقاً أمام النصر قد يكون هو البذرة الوحيدة للنصر الحقيقي.

فالنصر ليس أن يصل المؤمن إلى القوة بأي طريق، بل أن يصل إليها وهو لا يزال يحمل الحقيقة التي بدأ بها. وما أكثر الحركات التي انتصرت لأسماؤها وهُزمت لمبادئها، فوصلت إلى مواقع خصومها بعد أن أصبحت تشبههم. أما رسول الله ﷺ فقد دخل مكة بعد أعوام وهو يقرأ الحق نفسه الذي أمر أن يعلنه فيها يوم كان وحيداً؛ لم يتغير المعبود، ولم تبدل الرسالة، ولم تصبح الأصنام مقبولةً بعد اتساع الدولة، بل سقطت حين حان يوم سقوطها، لأن قلب صاحب الرسالة لم يسجد لها يوم كان إسقاطها بعيداً.

إن قول المؤمن: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ليس تشبهاً بعنوانٍ موروث، بل استعدادٌ لتحمل كلفة الطريق؛ فقد يكون للدين ثمنٌ في الراحة والمكانة والعلاقات، لكن ما يفقده الإنسان بسببه يبقى أقل مما يفقده إذا فقد نفسه. ومن باع دينه لينجو بشيءٍ من الدنيا اكتشف أن الدنيا نفسها لا تمنحه الأمان الذي وعده به، أما من حفظ دينه فقد يحرم بعض ما يحب، لكنه يحتفظ بالمركز الذي يعيد به بناء كل ما تهدم.

وفي نهاية السورة يعود الإنسان إلى وحدته الأولى أمام الله؛ الجماعات تتفرق، والمصالح تبدل، والتحالفات تنتهي، وكل امرئٍ يأتي ربه فرداً. هناك لا يحمل أحدٌ عن أحدٍ دينه، ولا تنفع كثرة السائرين في طريق إذا كانت نهايته الهلاك. لذلك تقول الآية بوضوح يسبق يوم الحساب: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ فليعرف كل امرئٍ ما الذي اختاره قبل أن يتحول اختياره إلى مصير، وليعلم أن الطرق قد تتجاور في الدنيا، لكنها لا تتساوى عند الله.

وهكذا تنتهي سورة الكافرون كما ينبغي للتوحيد أن يتكلم: لا يعتذر عن نفسه، ولا يعتدي على أحد، ولا يساوم، ولا يذوب، ولا يحتاج إلى أن يكره الإنسان كي يرفض باطله. يقف بوضوحه الكامل ورحمته الكاملة، ويقول للعالم: لن أعبد ما تعبدون، ولن أسبي الشرك توحيداً،

ولن أّبدل ديني طلباً لرضاكم، ولن أظلمكم لأنكم خالفتُموني؛ لكم اختياركم وتبعته، ولي عهدي
وعبوديتي وطريقي إلى الله:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

الفصل الخامس

هندسة الحرية في سورة الكافرون

كيف يبني التوحيد إنساناً لا يذوب ولا يظلم؟

ليست سورة الكافرون بياناً عقدياً يُحفظ في أبواب الاعتقاد وحدها، بل هي هندسةٌ كاملة للحرية الإنسانية؛ لأنها تبدأ بتحرير مصدر الكلمة، ثم تحرر المعبود، ثم تحرر الهوية، ثم تحرر العلاقة بالخالف من الكذب والذويان والعدوان. تبدأ بـ ﴿قُلْ﴾ حتى لا يكون الإنسان عبداً لصمته وخوفه، وتعلن ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ حتى لا يكون عبداً للمعبودات الزائفة، وثبت ﴿وَلَا أَنَا عَبْدٌ﴾ حتى لا يكون موقفه طارئاً تهزمه الأيام، وتنتهي بـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ حتى لا تتحول المفاصلة العقدية إلى فوضى في المعاملة أو إكراهٍ للقلوب.

إنها تنقل المؤمن في ست آياتٍ من تلقي الكلمة إلى امتلاك الموقف؛ لكنه لا يمتلك الموقف بمعنى أنه اخترعه، بل بمعنى أنه أصبح أهلاً لحمله. ففي البداية يتلقى: ﴿قُلْ﴾، وفي النهاية ينتمي: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾؛ وبين التلقي والانتماء تمر النفس بعملية تطهيرٍ من جميع صور العبودية المزاحمة. وكأن السورة تقول: لا يستطيع الإنسان أن يقول «لي ديني» بصدق حتى يسبق ذلك بقوله: «لا أعبد ما تعبدون»؛ فالهوية لا تتكون بالإثبات وحده، وإنما تحتاج إلى حدودٍ تحميها من الذويان. وكل هويةٍ بلا حدود تتحول مع الوقت إلى اسمٍ بلا مضمون. فلما لا يبقى ماءٌ إذا زالت عنه جميع خصائصه، واللغة لا تبقى لغةً إذا فقدت معانيها وقواعدها، والدين لا يبقى ديناً إذا أزيلت منه الفروق التي تميزه عن نقيضه. وقد يظن بعض الناس أن قوة الهوية في قدرتها على استيعاب

كل شيء، لكن الهوية التي تستوعب نقيضها تنقض نفسها؛ فإذا أصبح التوحيد قادراً على استيعاب الشرك، لم يعد توحيداً، وإذا أصبح الصدق قادراً على استيعاب الكذب بوصفه وجهاً آخر له، لم يعد للصدق معنى.

إن السورة تعلننا أن الحدود ليست دائماً جدران كراهية؛ فقد تكون شروطاً لبقاء المعنى. شاطئ البحر لا يكره البحر حين يحده، وجدران البيت لا تعادي العالم حين تمنح ساكنه مكاناً يأوي إليه، والحد الفاصل بين الحق والباطل لا يُقام لإلغاء الإنسان المخالف، بل لحماية الحقيقة من أن تُبتلع داخل ألفاظٍ مائعة. يستطيع الإنسان بعد ذلك أن يفتح النوافذ والأبواب، وأن يتعارف ويتعاون ويتحاور، لكنه لا يستطيع أن يعيش في بيتٍ أُزيلت جدرانه باسم الانفتاح.

وقد أرادت قريش من النبي ﷺ أن يفتح دينه لا للحوار، بل للاختلاط؛ والفرق بينهما أن الحوار يجمع شخصين واضحين يحاول كل واحدٍ منهما أن يفهم الآخر ويعرض حجته، أما الاختلاط فيبدأ بمطالبة أحدهما أن يتخلى عن وضوحه حتى لا يبقى موضوعٌ حقيقي للحوار. الحوار يعترف بوجود الاختلاف، أما المساومة فتريد إنتاج صيغةٍ ضبابيةٍ لا يستطيع أحدٌ أن يقول فيها أين يقف. ولهذا كانت سورة الكافرون، مع شدة مفاصلتها، تأسيساً لحوارٍ أنظف؛ لأنها تمنع كل طرفٍ من خداع الآخر.

إن المؤمن الذي يدخل الحوار وهو يخفي عقيدته لا يحترم مخالفه، لأنه يتعامل معه بوصفه عاجزاً عن سماع الحقيقة؛ والمؤمن الذي يفترى على عقيدة مخالفه لا يحترم الحقيقة، لأنه يستبدلها بخصمٍ متخيلٍ يسهل الانتصار عليه. أما منهج سورة الكافرون فيجمع الصديقين: أن تقول ما تؤمن به دون مواربة، وأن تنسب إلى المخالف ما يؤمن به هو دون تحريف، ثم يكون النقاش بين حقيقتين معلومتين، لا بين صورتين صنعت كل واحدةٍ منهما الدعاية عن الأخرى.

لكن السورة لا تبني حدود الخارج قبل أن تبني حدود الداخل؛ فالمساومة التي تعرضها قريش على المؤمن قد تجد حليفاً داخل نفسه: حبه للقبول، أو خوفه من الوحدة، أو طمعه في العطاء، أو تعب من الصراع. ولو لم يكن في الداخل استعدادٌ للتنازل لما كان لضغط الخارج كل هذه القوة. ولذلك فإن أول معركةٍ تخوضها ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ليست مع الأصنام القائمة حول الكعبة، بل مع ذلك الجزء الضعيف في النفس الذي يريد أن ينال الحق وثن التنازل عنه في الوقت نفسه.

إن الإنسان كثيراً ما يرغب في جمع أشياء لا تجتمع: يريد نقاء الضمير ومكاسب الخيانة، وحرية الروح ورضا المستبد، وكرامة الموقف وامتيازات الذوبان، وطريق الأنبياء بلا شيء من تكاليفه. ثم يقضي عمره يحاول ابتكار عبارةٍ تقنعه أنه لم يتنازل، مع أن حياته كلها تحكي تنازله. وسورة الكافرون تأتي لتقطع هذه الحيلة الداخلية؛ فبعض الخيارات لا يمكن جمعها، وبعض الأبواب لا يمكن دخولها والخروج منها في اللحظة نفسها، وبعض المواقف تفقد حقيقتها بمجرد قبولها أنصاف الحلول.

ولا يعني ذلك أن الإسلام يرفض كل حلٍّ وسط، أو أن الحكمة دائماً في الذهاب إلى أقصى الأطراف؛ فشؤون الحياة والاجتهادات البشرية والسياسات والمصالح تحتل الموازنة والتدرج والتسويات المشروعة. لكن سورة الكافرون تعلمنا أن نفرق بين ما يقبل الاجتهاد وما لا يقبل النقض، وبين الوسيلة التي يمكن تعديلها والغاية التي يهدّها التعديل، وبين حقِّ شخصي يستطيع صاحبه أن يتنازل عنه وحقِّ الله لا يملكه الإنسان حتى يقدمه على مائدة التفاوض. فالخلل ليس في التسوية من حيث هي تسوية، بل في أن تمتد إلى أصل العبودية.

وهذه القدرة على التمييز من أعظم علامات النضج؛ فالجامد يجعل كل جزئية أصلاً لا يمكن الاقتراب منه، والمائع يجعل كل أصل جزئية قابلة للتنازل، أما البصير فيعرف موضع الثبات وموضع المرونة. يغير أسلوبه ولا يغير صدقه، ويطور وسيلته ولا يستبدل غايته، ويراجع فهمه البشري ولا يتعامل مع الوحي كأنه مادة تحت التجربة. إن السفينة التي لا تحرك شراعها مع الرياح لا تبلغ وجهتها، لكن السفينة التي تغير وجهتها مع كل ريح لا تبلغ شيئاً.

وتضع السورة مقياساً بالغ الدقة لمعرفة ما إذا كانت المرونة حكمة أم مdahنة: هل غير الإنسان وسيلته ليلبغ الحق على نحو أفضل، أم غير الحق ليحصل على قبول أسرع؟ هل اختار العبارة الأرفق كي يفتح القلب، أم حذف من الدين ما يعلم أنه لا يعجب السامعين؟ هل سكت عن الكلام في وقت غير مناسب تمهيداً لبيانه، أم دفنه لأن ثمن البيان ثقل؟ النية وحدها لا تكفي للإجابة؛ لا بد من النظر في النتيجة: هل بقي معنى الرسالة كاملاً، أم لم يبق منها إلا اسم جميل لا يعترض على شيء؟

إن المdahنة تمنح الباطل شيئاً من الدين مقابل شيء من الدنيا، أما المداارة المشروعة فتقدم شيئاً من الدنيا لحماية الحق أو إيصال الخير. المdahن يتنازل عن المبدأ ليحفظ مصلحته، والمداوي يتنازل عن حظه الشخصي ليحفظ مبدأه أو يدفع شراً. وبينهما قد يتشابه لطف العبارة وهدوء السلوك، لكن الباطن والغاية مختلفان؛ ولذلك يحتاج المؤمن إلى بصيرة صادقة، لأن النفس قد تسمي خوفها حكمة، وتسمي حرصها على صورتها رفقاءً، وتسمي تعلقها بالمكاسب مراعاةً للمصلحة. وسورة الكافرون تقيم داخل النفس محكمة تمنع هذا التزييف؛ فحين يقول المؤمن كل يوم: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ينبغي أن يسأل نفسه: هل رفضت معبودات الناس حقاً، أم غيرت أسماءها فقط؟ هل خرجت من عبادة الصنم إلى عبادة المكاة؟ هل رفضت الخضوع للطاغية ثم

أصبحت عبداً للتصفيق الجمهور؟ هل أنكرت على المشركين اتباع الآباء، ثم جعلت ما ورثته عن جماعتي فوق المراجعة؟ إن الآية التي لا تعود إلى القلب بالحاسبة قد تتحول إلى أداة اتهامٍ للآخرين، بينما نزل القرآن ليهدي القارئ قبل أن يمنحه لغةً يصف بها غيره.

وقد يكون أخفى الأصنام صنم الصورة التي يريد الإنسان أن يظهر بها؛ فهو لا يفعل ما يرضي الله بقدر ما يفعل ما يحافظ على صورته أمام أتباعه أو خصومه. وقد يبدو ثابتاً، لكن دافعه الخوف من أن يُتهم بالتراجع، وقد يبدو مرناً، لكن دافعه الرغبة في أن يوصف بالانفتاح. وفي الحالتين يظل الناس هم المعبود الخفي الذي يحدد اتجاهه. أما التحرر الحقيقي فهو أن يستطيع مراجعة خطئه ولو غضب أنصاره، وأن يثبت على الحق ولو سخر خصومه؛ لأنه لا يسأل أولاً: كيف سيصفونني؟ بل يسأل: كيف يراني الله؟

إن عبادة الجمهور لا تقل خطراً حين يكون الجمهور مؤيداً؛ فقد يظن الداعية أن فتنته في أعدائه وحدهم، بينما تكون فتنته الكبرى في الذين يصفقون له. العدو يدفعه إلى التنازل بالخوف، والمؤيد قد يدفعه إليه بالإعجاب؛ الأول يهدده بفقد الأمان، والثاني يهدده بفقد الصورة التي صنعها حوله. وفي الحالتين تأتي سورة الكافرون لتقول: لا تعبد رفضهم ولا رضاهم؛ فرب رجلٍ قاوم السجن ولم يقاوم التصفيق، وثبت أمام الوعيد ثم ذاب أمام الثناء.

ومن أصنام العصر كذلك وهم الاستقلال المطلق؛ أن يتصور الإنسان أن حريته لا تكتمل إلا إذا لم يكن فوقه أمرٌ ولا نهي، وأن كل سلطةٍ على رغبته عدوةٌ لذاته. لكنه حين يرفض عبادة الله لا يصبح سيّداً كاملاً لنفسه، بل تنتقل به العبودية من المطلق الحق إلى أشياء محدودة: إلى خوارزمياتٍ توجه انتباهه، وأسواقٍ تصنع رغباته، وإعلاناتٍ تحدد ما ينقصه، وجمهورٍ يقيس به قيمته. يفر من السجود لله، ثم يقضي عمره منحياً أمام أذواقٍ تبدل كل صباح.

إن الإنسان الحديث قد يسخر من الوثني الذي يصنع إلهه بيده، ثم يصنع لنفسه هويةً بحسب ما تطلبه المنصة، ويعيد تشكيل آرائه خوفاً من العزلة، ويشتري ما لا يحتاج إليه ليحصل على اعترافٍ لا يدوم. والفرق بين الصنمين في المادة، لا في فعل العبودية؛ هذا منحوتٌ من حجر، وذاك منحوتٌ من رغبات الجماعة. كلاهما يعدّ الإنسان بالأمان، ثم يسلبه حريته، وكلاهما يحتاج إلى إمدادٍ دائمٍ من خوف العابد ورجائه حتى يبقى حياً في داخله.

أما الله سبحانه فهو الغني عن العالمين؛ لا تزيد في ملكه طاعة الطائعين، ولا تنقص منه معصية العاصين، وإنما تعود العبادة إلى الإنسان فتجمع شتاته وتضعه في موضعه الصحيح. وحين يعبد العبد رباً غنياً عنه يتحرر من الاستعمال؛ فهو لا يُستنزف لإطعام حاجةٍ في معبوده، بل يُهدى إلى ما يصلح نفسه. أما المعبودات الزائفة فكلها فقيرة إلى عابديها: الصنم يحتاج إلى من يخته ويحمّله ويحرسه، والطاغية تحتاج إلى من يصفق له ويخافه، والسوق يحتاج إلى مستهلكٍ لا يشبع، والشهرة تحتاج إلى عينٍ لا تغادر. وحده الله لا يحتاج إلى عبادتنا، ونحن وحدنا الذين نحتاج إلى عبادته.

ومن هنا كانت العبودية لله ذروة الحرية؛ لا لأنها تلغي الانقياد، بل لأنها تضعه في موضعه الوحيد الذي لا يهين الإنسان. حين يسجد المرء لله لا يصغر، بل تتخطم في داخله قابلية السجود لما سواه. إن الجبهة لا تستغني عن السجود، فإن لم تضع نفسها لله وضعتها الدنيا أمام ألف باب؛ لكنها حين تمس الأرض لله وحده ترتفع فوق كل سلطانٍ يريد منها انحناء القلب.

وتبني سورة الكافرون كذلك استقلال العقل؛ فقولها: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ يحرر الإنسان من سلطة الموروث حين يخالف الوحي، وقولها: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يحرره من ضغط الحاضر حين يتحول الشائع إلى حجة، وقولها: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ يحرره من الخوف من المستقبل. الماضي لا يستعبده باسم

الآباء، والحاضر لا يبتلعه باسم الأثرية، والمستقبل لا يشتريه باسم المصلحة. يقف بين الأزمنة الثلاثة بقلب يزنها كلها بميزان يأتيه من فوق الزمن.

إن كثيراً من الناس يخرجون من تقليد الماضي ليقعوا في تقليد الحاضر؛ يظنون أنهم تحرروا من الآباء، لكنهم أصبحوا أسرى الموضة الفكرية السائدة. كانوا من قبل يقولون: وجدنا آباءنا على هذا، ثم صاروا يقولون: العالم كله يتجه إلى هذا؛ فتغيرت الجهة التي يقلدونها، ولم يتحرر العقل من أصل التقليد. أما التوحيد فيخضع الماضي والحاضر معاً للحقيقة؛ فلا يرفض القديم لأنه قديم، ولا يقبل الجديد لأنه جديد، بل يسأل: ما نصيبه من الحق؟

وقد يلبس ضغط العصر ثوب الحتمية؛ فيقال للمؤمن إن عليه أن يعيد تشكيل دينه لأن العالم تغير، وكأن تغير الوسائل يقتضي تغير المعبود، أو كأن تعقد الحياة يسقط الحقائق الكبرى التي تمنحها معناها. ولا شك أن الواقع المتغير يحتاج إلى فقه متجدد واجتهاد بصير، لكن الاجتهاد ليس تفويضاً للواقع كي يعيد خلق الوحي على صورته؛ بل هو جهد لفهم هداية الوحي وتنزيلها على واقع جديد. هناك فرق بين أن تسأل: كيف يهدينا الدين في هذا العصر؟ وبين أن تسأل: كيف نصنع ديناً لا يعترض عليه العصر؟

إن العصر نفسه ليس إلهاً؛ فهو مزيج من حق وباطل، وعدل وظلم، وعلم ووهم، وتقدم تقني وانحطاط أخلاقي. ومنحه سلطة الحكم المطلق لا يقل سذاجةً عن منحها للماضي. وقد تأتي سورة الكافرون لتقول للزمن كله: لا أعبد ما تعبدون؛ فلا ألتخذ نجاح الحضارة المادي دليلاً على صحة فلسفتها، ولا أجعل قدرتها على إنتاج الآلة حجةً على قدرتها على تعريف الإنسان والغاية والخير. أتعلم من خبرتها، وأتفجع بعلمها، وأشارك في عمران الدنيا، لكنني لا أسلم لها مفاتيح ضميري.

ولا يُبنى الاستقلال العقدي بالجهل بالعالم، بل بمعرفته دون الذوبان فيه؛ فالمؤمن الواثق لا يخشى الأسئلة، ولا يغلق أبواب المعرفة، ولا يظن أن حماية الإيمان تكون بتعطيل العقل. إن سورة الكافرون لم تهرب من عرض المشركين، بل واجهته، وفهمت منطقته، ثم رفضته. والرفض الناضج ليس خوفاً من الفكرة، بل حكمٌ عليها بعد تمييزها. أما الذي لا يعرف لماذا يرفض فقد ينهار أمام أول صياغةٍ جديدةٍ للباطل نفسه.

إن السورة تعلم المؤمن أن يكون ذا عقلٍ مفتوح وقلبٍ له قبله؛ يقرأ الأفكار المختلفة، لكنه لا يدخلها إلى مركزه بلا ميزان؛ يفهم الحضارات، لكنه لا يذوب في افتراضاتها؛ يستفيد من علوم الناس، لكنه لا يخلط بين صحة التجربة العلمية وصحة كل فلسفةٍ يحملها صاحبها. فالانفتاح الحقيقي قدرةٌ على استقبال المعرفة مع الاحتفاظ بملكة الحكم، أما استقبال كل شيء بلا تمييز فليس انفتاحاً، بل فقدانٌ للمناعة.

وكما تحرر السورة العقل من التبعية، فإنها تحرر الأخلاق من المنفعة. فالذي يعبد الله لا يكون صادقاً فقط حين يريح الصدق، ولا عادلاً فقط مع من يحب، ولا أميناً ما دامت الأمانة سهلة. إنه يعلم أن للقيم مصدراً أعلى من تقلب المصلحة؛ ولذلك يستطيع أن يقف مع الحق حتى حين يكون الحق على خصمه، وأن يعترف بخطئه ولو خسرت جماعته جولةً من الجدل. أما من يعبد الانتماء فإنه لا يرى الحق إلا في صفه، ولا يرى الظلم إلا عند الآخرين.

وهنا تتحول سورة الكافرون من مفاصلةٍ مع الكفر الخارجي إلى مفاصلةٍ مع الجاهلية الأخلاقية التي قد تسلل إلى أهل الإيمان. فما فائدة أن يقول المسلم للكافر: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ثم يكذب ويظلم ويخون كأن دينه لم يصنع فيه شيئاً؟ إن انتماءه لا يكتمل بمجرد براءته من

عقيدة الآخر، بل بإظهار أثر دينه في خلقه. ليس الفرق بين الطريقتين في اسم المعبود وحده، بل فيما تصنعه معرفة المعبود الحق في الإنسان: تواضعاً وعدلاً ورحمةً وأمانة.

وإذا لم تُثمر العقيدة أخلاقاً، فلا يعني ذلك أن العقيدة ناقصة، بل أن صلتنا بها لم تبلغ عمقها. فمن عرف أن الله يراه استحياءً أن يخون في الخفاء، ومن عرف أنه مالك يوم الدين لم يجعل انتصاره العاجل فوق العدل، ومن عرف غناه وقدرته لم يتذلل للمخلوقين طلباً لما في أيديهم، ومن عرف رحمته لم يجعل التدين ذريعةً للقسوة. التوحيد الصحيح يعيد تشكيل السلوك؛ لأن الذي تغير معبوده ينبغي أن تتغير حياته.

وفي هذا الموضوع يظهر الفرق بين الاعتزاز بالدين والتعصب للنفس؛ فالمعتز بالدين يخضع للحق ولو جاء على لسان خصمه، أما المتعصب لنفسه فيجعل موقفه هو الحق لأنه موقفه. الأول يقول: ديني فوق يحاسبني، والثاني يتصرف كأن الدين تحته يستعمله. الأول يخاف أن يسيء إلى الحق بأخلاقه، والثاني يتوهم أن انتسابه إلى الحق يبرر له كل خلق. وسورة الكافرون بريئة من هذا التوظيف؛ لأنها بدأت بإخضاع النبي ﷺ نفسه للأمر: ﴿قُلْ﴾، قبل أن تخاطب المخالفين.

إن من لم يسمع ﴿قُلْ﴾ بوصفها تكليفاً له قد يسمع ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ بوصفها امتيازاً على غيره، فيتحول الوحي عنده من مسؤولية إلى أداة تفوق. أما القراءة الصحيحة فتجعله يرتجف من الأمانة قبل أن يطمئن إلى الانتساب؛ يسأل نفسه: هل قلت ما أمر الله دون تحريف؟ وهل عبدته وحده؟ وهل ثبتت على ديني؟ وهل عدلت مع من قلت لهم: لكم دينكم؟ فالآيات لا تمنحه مكانةً مجانيةً، بل تحمله عهداً ثقيلاً.

ومن هندسة السورة أنها لم تبدأ بـ«لكم دينكم»، لأن التعايش الذي يسبق وضوح العقيدة قد يتحول إلى ذوبان؛ ولم تنتهِ عند «لا أعبد»، لأن البراءة التي لا تعرف كيف تتعامل مع المخالف

قد تنقلب إلى خصومةٍ عمياء. بدأت بتأسيس الهوية، ثم ختمت بتنظيم المسافة؛ عرّفت المؤمن بمن يعبد، ثم علمته كيف يقف أمام من يخالفه. وهذا الترتيب يرسم منهجاً متوازناً: تأسيسٌ داخلي قبل الانفتاح الخارجي، ووضوحٌ في الحقيقة قبل إدارة الاختلاف.

إن المجتمعات لا تحتاج إلى أفرادٍ بلا عقائد كي تعيش في سلام، بل تحتاج إلى أفرادٍ يملكون عقائد واضحةً وأخلاقاً عادلة. فالذي أخفى خلافه قد ينفجر حين لا يعود قادراً على الإخفاء، أما الذي عبر عنه ضمن ميزانٍ أخلاقي فيستطيع أن يدير الاختلاف دون خوف. السلام المستقر لا يُبنى على إنكار الفروق، بل على منع الفروق من التحول إلى ظلم؛ كما أن الوحدة الحقيقية لا تُبنى على صهر الناس في نسخةٍ واحدة، بل على اجتماعهم في المعروف مع بقاء ضمائرهم واضحة.

ومن هنا لا يكون قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ نهاية العلاقة الإنسانية، بل نهاية المساومة العقدية. بعد هذه الجملة يمكن أن تبدأ معاملةً صادقة: تجارةٌ بأمانة، وجوارٌ بحسن، وعهدٌ بوفاء، وحوارٌ بحكمة، ودفاعٌ عن مظلومٍ ولو خالفنا، وتعاونٌ على خيرٍ لا يمس أصل الدين. إن الذي يعرف أين تنتهي حدود عقيدته لا يخاف من المساحات المشتركة المشروعة، لأن وضوحه يمنعه من تفسير التعاون على أنه اعترافٌ بكل شيء.

أما المائع فيخاف أحياناً من إعلان معتقده لأنه بنى علاقته بالآخر على وهم التطابق، فإذا ظهر الاختلاف شعر أن العلاقة كلها مهددة. والسورة تقترح أساساً أنضج: لست محتاجاً إلى أن تكون نسخةً مني حتى أعدل معك، ولست محتاجاً إلى أن أكون نسخةً منك حتى تحترم إنسانيتي. يكفيننا في شؤون المعاملة أن نعرف الحقوق والعهود، أما العقائد فيدانا البيان والاعتناع، لا الكذب المتبادل.

وفي السورة تربيةً للداعية على التحرر من استعجال النتائج؛ فقد قال النبي ﷺ كلمته ولم يؤمن المخاطبون جميعاً في لحظتها، لكن الرسالة لم تفشل. إن نجاح البلاغ ليس دائماً في أن يوافقك السامع فوراً، بل في أن تصون الحقيقة وتوصلها كما هي، وأن تترك في ضميره سؤالاً قد يستيقظ بعد أعوام. ورب كلمة رفضها إنساناً في مجلس ثم ظلت تعمل داخله حتى عاد إليها، ورب عبارة لينة في غير موضعها نالت تصفيقه لكنها لم توقظه من شيء.

الداعية ليس مالِكاً للهداية، ولذلك لا يحق له أن يغير الدواء حتى يرضى المريض عن مذاقه إذا كان التغيير يبطل أثره. عليه أن يختار الأسلوب الأحسن، وأن يفهم النفوس، وأن يصبر ويرحم، لكن الرحمة لا تمنحه الإذن بحذف الحقيقة. إن النتائج التي تأتي على حساب الرسالة ليست نتائج لها، والأتباع الذين يجتمعون حول دينٍ أفرغ مما يزعمهم لم يجتمعوا حول الدين الذي جاء به الرسول.

وكذلك يتعلم المصلح من السورة ألا يقيس سلامة موقفه بالنجاح العاجل؛ فقد يقول الحق فيخسر منصّباً، ويرفض المساومة فيضيق عليه الطريق، ويثبت على أمانته فيسبقه من لا أمانة له. لكن سورة الكافرون ترد تعريف النجاح إلى أصله: النجاح الأول ألا تصبح عبداً لما رفضته، وألا تنتصر في الخارج بعد أن تهزم في الداخل. فما قيمة أن تبلغ الغاية بجسدك وقد تركت مبادئك على الطريق؟ وما قيمة أن يرفع الناس اسمك إذا كان الاسم الذي رفعوه لا يعود يدل عليك؟

إن أعظم الانتصارات غير المرئية أن يخرج الإنسان من الفتنة وهو الإنسان نفسه؛ لم تُفسد الخسارة قلبه، ولم تشتت المكاسب ضميره، ولم تحوله الخسومة إلى نسخة أخلاقية من خصمه. وهذه

هي البطولة التي تصنعها ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾: ليس مجرد أن ترفض سجدة لصنم، بل أن ترفض أن تعيد الهزيمة تشكيل روحك على مثال ما تكره.

ومن أجل أن يبقى هذا المعنى حياً جاءت السورة في حياة المسلم متكررة التلاوة، واقتربت في بعض السنن النبوية بسورة الإخلاص؛ فسورة الكافرون تخلع المعبودات الباطلة، وسورة الإخلاص تعرّف القلب بربه الواحد الأحد، الصمد، المنزه عن الولد والوالد والمثل. إحداهما تظهر الطريق من الشرك، والأخرى تملؤه بمعرفة التوحيد؛ إحداهما تقول: لا أعبد ما تعبدون، والأخرى تقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وبراءة بلا معرفة قد تصبح جفافاً، ومعرفة لا تحرسها البراءة قد يدخل عليها الالتباس؛ أما اجتماعهما فيصنع توحيداً نقيّاً: نفياً لما لا يستحق العبادة، وإثباتاً للكمال كله لمن يستحقها وحده.

ولا يكفي أن يقرأ المسلم سورة الكافرون بلسانه وهو يدخل في كل يوم مساوماتٍ صغيرة تنقض معناها. قراءتها الحقيقية أن يسمعها عند الصفقة التي يطلب منه فيها أن يخفي عيباً، وعند المجلس الذي يراد منه أن يشهد بالباطل، وعند الخوف الذي يدعوه إلى بيع موقفه، وعند الشهوة التي تريد أن تكون صاحبة الأمر، وعند التعصب الذي يطلب منه أن ينصر جماعته وهي ظالمة. هناك تتحول السورة من صوتٍ في الصلاة إلى بصيرةٍ في الحياة.

قد لا يطلب منك أحد أن تسجد لصنم، لكنه قد يطلب منك أن تسجد لمصلحةٍ في صورة توقيع، أو لخوفٍ في صورة صمت، أو لجماعةٍ في صورة تبرير، أو لسمعةٍ في صورة موقفٍ مصنوع. وفي كل مرة تعرف فيها الحق ثم تتركه لأن جهةً أخرى أمرتك، يكون السؤال العميق الذي تثيره السورة حاضراً: من الذي تعبد؟ ليس المقصود تكفير صاحب كل معصية، فالمؤمن قد

يضعف ويعصي مع بقاء أصل توحيده، وإنما المقصود كشف البنية التي تنكأثر منها العبوديات الخفية إذا لم يقاومها القلب بالتوبة والمجاهدة.

إن الفرق بين الزلة والعبودية أن الزلة يعقبها انكسارٌ وعودة، أما العبودية فيعقبها تهريرٌ واستمرارٌ ومنحٌ للهوى حق القيادة. المؤمن قد يسقط، لكنه لا يغير القبلة إلى الموضع الذي سقط فيه؛ ينهض ويستغفر ويرجع. ولذلك فإن سورة الكافرون ليست مطالبةً بإنسانٍ لا يخطئ، بل بإنسانٍ يعرف ربه حتى إذا أخطأ لم يتخذ خطأه ديناً، ولم يسمح للذنوب أن يعيد تعريف الحق في ضميره. إنها سورةٌ تمنح التوبة معناها أيضاً؛ فقول المؤمن: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ لا يقتصر على رفض ما لم يفعله، بل يمكن أن يكون خروجاً مما فعله من قبل. كم من إنسانٍ عاش زمناً أسير شهوة أو مكانة أو فكرة، ثم استيقظ وقال لها: لن أعبدك بعد اليوم. الماضي لا يلزمه إذا صدقت توبته، والعادة ليست قدراً، والصنم الداخلي مهما طال بقاءه يمكن أن يسقط حين يدخل نور التوحيد. لقد أصبح بعض الذين وجه إليهم خطاب القرآن من أعظم الموحدين حين خرجوا من دين الجاهلية إلى دين الله، وفي ذلك شاهدٌ على أن المفاصلة ليست إغلاقاً لباب التحول، بل هي التي تجعل التحول واضحاً وصادقاً.

فالهداية ليست مزجاً تدريجياً بين الشرك والتوحيد حتى يضيع الفرق، وإنما انتقالٌ من جهةٍ إلى جهةٍ؛ قد يسبقها بحثٌ طويل، وصراعٌ وأسئلة، لكن لحظتها الحاسمة هي أن يخلع القلب أربابه ويقول: لا إله إلا الله. ومن أجل ذلك يحتاج الداعية إلى أن يحافظ على وضوح الطريق؛ لأن الإنسان لا يستطيع الانتقال إلى وجهةٍ مُحيت حدودها. إن تميع العقيدة باسم تقريب الناس قد يحرمهم معرفة الشيء الذي يُدعون إليه.

وتمنح السورة للمؤمن الشجاعة كي يعيش غربته دون أن يحولها إلى كراهية. قد يجد نفسه وحده في أسرته أو مجتمعه أو عصره، وقد يرى القيم من حوله تتقلب، ويشعر أن لغته لم تعد مفهومة؛ لكنه يتعلم من النبي ﷺ أن العدد لا يقرر الحقيقة. كان فرداً يقول لقريش كلها: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ثم مر الزمن فدخل الناس في دين الله أفواجاً. لم تكن وحدته دليلاً على خطئه، بل كانت في تلك اللحظة صورة الحق قبل أن يجد طريقه إلى القلوب.

غير أن الغربة قد تفسد صاحبها إذا جعلته متعالياً على الناس؛ فيتحول ثباته إلى احتقار، وألمه إلى رغبة في الانتقام، ويظن أن اختلافه عن المجتمع يجعله خيراً بذاته. والسورة تعالج هذا الخطر أيضاً؛ فهي لا تمدح «الأنا» المستقلة لذاتها، بل تخضعها منذ البداية لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾. قيمة المؤمن ليست في أنه مختلف، فكم من اختلافٍ ضلال، وإنما في أنه موافقٌ للحق. فإذا نسي مصدر كلمته تحولت غيرته على الدين إلى تعصبٍ للنفس.

إن المؤمن لا يطلب الغربة لذاتها، ولا يتلذذ بخالفة الناس، ولا يظن أن كل ما استنكره المجتمع حق؛ بل يحب هداية الخلق، ويفرح باجتماعهم على الخير، ويأنس بإخوانه، لكنه إذا خيّر بين رضا الله ورضا الناس لم يجعل الوحدة سبباً للخيانة. إنه اجتماعي في رحمته، مستقل في ميزانه؛ ينتمي إلى الناس بإنسانيته، وإلى أمته بأخوته، لكنه ينتمي إلى الله بعبوديته العليا التي تحكم جميع الانتماءات.

وما أحوج الأمة إلى هذا النوع من الإنسان: إنسانٍ لا يذوب في أعدائه، ولا يذوب في جماعته؛ لا يمنحه رفض التبعية للخارج تفويضاً بتعطيل عقله في الداخل؛ لا يخرج من عبادة قوة دولية ليعبد زعيماً محلياً، ولا من انبهار بحضارة ليقع في انبهارٍ بتاريجٍ بشري غير معصوم. إنه موحدٌ

في أعمق المعاني: لا يجعل العصمة إلا للوحي، ولا يمنح الطاعة المطلقة إلا لله ولرسوله فيما بلغ عن الله، ويرد اجتهادات البشر كلهم إلى ميزان الحق.

إن الحركات والأمم ترفع شعارات التوحيد، لكن امتحانها الحقيقي يكون حين يتعارض الحق مع مصلحة التنظيم أو القائد أو الدولة. هل تقول: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لله وحده، أم تستغني من معبوداتك الخفية الجهة التي تنتمي إليها؟ إن الوثن القريب أخطر من الوثن البعيد؛ لأن القلب يعرف كيف يرفض ما يكرهه، لكنه يحتاج إلى تقوى عظيمة كي يرفض الباطل حين يأتيه من الجهة التي يحبها.

ومن هنا فإن سورة الكافرون ليست سيفاً يرفعه المؤمن على الآخرين، بل ميزاناً يضعه أولاً على قلبه وانتماءاته. تسأله: هل نصرت الحق لأنه حق، أم لأنه جاء من جماعتك؟ وهل رفضت الباطل لأنه باطل، أم لأنه جاء من خصمك؟ ولو تبادلت الجهات مواقفها، هل يتبدل حكمك؟ من كان جوابه يتغير بتغير الأسماء لم يكتمل تحرره؛ لأنه لا يزال يعبد الاسم والانتماء، وإن ظل يتحدث عن المبدأ.

إن التوحيد عدالة معرفية قبل أن يكون شعاراً؛ فهو يجبر الإنسان على أن يخرج من مركبة ذاته، وأن يعترف بأن الحق ليس ملكاً له. ولذلك يستطيع المؤمن الحق أن يقول لمخالفه: أصبت في هذه وأخطأت، دون أن يشعر أن دينه انهمز؛ لأن العصمة ليست له، ولأن عودته إلى الحق انتصاراً لعبوديته. أما الذي جعل نفسه أو جماعته معبوداً خفياً، فإن الاعتراف بالخطأ يبدو له سقوطاً للألوهية التي منحها لذاته.

وهكذا تبني السورة إنساناً واضح المركز، مرن الأطراف؛ مركزه عبادة الله لا يتبدل، أما أساليبه وعلاقاته وخبراته فتتسع للتعلم والتطور والتعاون. لا يكون صخراً أصم يرفض كل جديد،

ولا سائلاً بلا شكل يأخذ صورة كل وعاء؛ بل شجرةً ثابتة الجذر، واسعة الأغصان، تستقبل الضوء والهواء، وتعطي الناس ثمرها، ولا تسمح للريح أن تقتلع أصلها.

إن الثبات الحقيقي لا يخاف الحركة، لأن الذي يعرف جذره يستطيع أن يمتد؛ والانفتاح الحقيقي لا يخجل من الأصل، لأن الذي لا أصل له لا ينفتح، بل يتبدد. وسورة الكافرون تمنح المؤمن هذا الجذر في أبسط عبارةٍ وأحسمها: معبودي ليس معبوداتكم، وطريقي لا يقبل أن يُدجج في طريقكم، ومع ذلك لن أحمل وضوحي على هيئة ظلم؛ سأبقى داعياً، عادلاً، رحيماً، لكنني لن أتنازل عن الحقيقة التي بها أصبحت حراً.

وبهذه الهندسة الدقيقة تصنع السورة من التوحيد قوةً أخلاقية وحضارية، لا عزلةً سلبية؛ فالإنسان المتحرر من عبادة المال يستطيع أن يقيم اقتصاداً أكثر عدلاً، والمتحرر من عبادة السلطة يستطيع أن يقول للحاكم أخطاءً، والمتحرر من عبادة الجماعة يستطيع أن ينصف خصمه، والمتحرر من عبادة الشهوة يستطيع أن يحفظ كرامة الضعفاء، والمتحرر من عبادة الماضي يستطيع أن يتعلم، والمتحرر من عبادة العصر يستطيع أن ينقده. وكل تحريرٍ حقيقي يبدأ من تحرير المعبود. إن الحضارة لا تنهار فقط حين يقل إنتاجها، بل حين تتحول الوسائل التي صنعتها إلى آلهة؛ حين يصبح الاقتصاد غايةً يُضحى بالإنسان لأجلها، وتصبح الدولة قيمةً فوق العدل، وتصبح التقنية صاحبة حقٍّ في تحديد معنى الحياة، ويصبح التقدم المادي مبرراً لإهدار الروح. وهنا لا تكون سورة الكافرون خطاباً لفردٍ أمام صنمٍ صغير، بل خطاباً للإنسانية أمام أصنامها الكبرى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ لا أجعل ما صنعه الإنسان رباً للإنسان، ولا أسمح للوسيلة أن تبتلع الغاية، ولا للقوة أن تُنشئ الحق لمجرد أنها قادرة.

إن العالم يحتاج إلى من يقول «لا» بقدر حاجته إلى من يقول «نعم»؛ فكل تقدم أخلاقي بدأ برفض عبودية اعتادها الناس: لا للظلم، لا لاستباحة الضعيف، لا لتحويل الإنسان إلى سلعة، لا للكذب الذي يحمي القوة. لكن هذه «اللاءات» تثشت إذا لم تصدر عن «نعم» عليها تجمعها؛ ولذلك يردها التوحيد إلى أصلها: نقول لا للطغيان لأننا قلنا نعم لعبادة الله، ولا للظلم لأن الله أمر بالعدل، ولا لإهدار الإنسان لأن الله كرمه. ليست موافقنا موجات غضبٍ عابرة، بل فروعاً تخرج من جذر العبودية.

وسورة الكافرون هي مدرسة «لا» التي لا تتحول إلى عدمية؛ ترفض الباطل دون أن تفقد غايتها، وتخرج من العبوديات الصغيرة لتدخل في العبودية الكبرى التي تحفظ الإنسان. إنها لا تقول: لا أعبد شيئاً، بل تقول: لا أعبد ما تعبدون، ثم ثبت ضمناً وفي السورة كلها عبادة الله. فالمؤمن ليس ثائراً بلا قبة، ولا رافضاً يعيش على الرفض، بل صاحب ولاءٍ واضح هو الذي يمنح براءته معناها.

وحين يكتمل هذا البناء في القلب، يصبح قول السورة سيرةً كاملة: يتلقى الإنسان ميزانه من الله، ويسمي الباطل دون ظلم، ويرفض الخضوع لغير ربه، ويميز عبادته من العبادات الزائفة، ويثبت أمام ضغط الزمن، ثم يترك للآخرين مسؤولية اختيارهم دون أن يمد يده إلى إكراه قلوبهم أو ظلم حقوقهم. تلك ليست سورة خصومة، بل سورة نضجٍ إيماني؛ لأن غير الناضج إما أن يذوب في المخالف أو يفجر الاختلاف، أما المؤمن الذي ربه السورة فيعرف كيف يكون واضحاً وآمناً في آنٍ واحد.

وهكذا تعود الآيات الست إلى سؤالٍ واحدٍ يتكرر في كل تفاصيل الوجود: لمن يكون القلب في النهاية؟ فقد نتعدد الأسماء والوسائل والأزمان، لكن المعركة العميقة تبقى معركة المعبود.

فإذا كان القلب لله استقامت علاقته بنفسه وبالناس وبالعالم، وإذا توزع بين الأرباب عاش ممزقاً ولو ظن أنه جمع المنافع كلها. ومن هنا لم يكن التوحيد قضيةً في هامش الحياة، بل كان استرداداً لوحدها؛ ولم تكن سورة الكافرون ست آياتٍ في رفض أصنامٍ ماتت، بل كانت نداءً أبدياً لكل إنسانٍ يريد أن يستعيد نفسه:

لا تمنح قلبك لمن لا يملكك، ولا تضع مصيرك في يد من لا يملك مصيره، ولا تجعل رضا المخلوقين قبلةً تتغير معها اتجاهاتك، ولا تسمّ التنازل سلاماً، ولا الظلم ثباتاً، ولا الذوبان رحمة. اعبد الله وحده، وكن واضحاً دون قسوة، رحيماً دون تنازل، حاضراً بين الناس دون أن تفقد نفسك؛ فليس حراً من لم يعرف لمن يسجد، وليس ثابتاً من احتاج إلى كراهية الآخرين حتى يحفظ يقينه، وليس موحداً كامل التوحيد من كسر أصنام الحجر وأبقى في قلبه عروش الخوف والهوى والسمعة.

تلك هي الحرية التي تبنيها سورة الكافرون: أن يكون القلب كله لله، وأن تكون اليد عادلةً مع خلق الله، وأن يبقى الحق واضحاً مهما اختلطت الأصوات، وأن يستطيع المؤمن، في زمن المساومات الكبرى والصغرى، أن يقول بهدوء النبوة وصلابة اليقين:

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

الختامة

حين لا يبقى في القلب معبودٌ إلا الله

هكذا تنتهي الرحلة في سورة الكافرون، لكنها لا تنتهي عند آخر آية؛ لأن السورة التي تُعلق باب المساومة تفتح في القلب باب المحاسبة، والسورة التي تفصل بين التوحيد والشرك في الخارج تدفع قارئها إلى البحث عن الحدود الملتبسة في داخله، والسورة التي خاطبت كفار قريش قبل أربعة عشر قرناً ما تزال تخاطب في الإنسان كل قابليةٍ للانحناء، وكل خوفٍ يوشك أن يصير معبوداً، وكل رغبةٍ تطلب من الضمير أن يتنازل، وكل جهةٍ محدودة تحاول أن تتجاوز حدها فتجلس في موضعٍ لا ينبغي أن يكون إلا لله.

ست آياتٍ فقط، لكنها تستوعب رحلة التحرر كلها؛ تبدأ بكلمةٍ يلقاها النبي ﷺ من ربه: ﴿قُلْ﴾، وتنتهي بدينٍ يعلن انتماءه إليه: ﴿وَلِيَّ دِينٍ﴾. وبين الأمر والانتماء يولد الإنسان الموحد؛ يتلقى الحقيقة أولاً، ثم يعلنها، ثم ينفي عن نفسه عبادة ما سوى الله، ثم يثبت على نفيه أمام الزمن والمساومة، ثم يضع المسافة الأخلاقية الواضحة بينه وبين من خالفه. وكأن السورة تعلمنا أن الهوية الإيمانية لا تُصنع بادعاء الذات، وإنما تبدأ من الاستماع لله؛ فالذي لم يتلقَ من فوق سيظل يتشكل بحسب ما يأتيه من حوله.

إن أول الحرية أن يعرف الإنسان من أين يأخذ كلمته. فنأخذ كلمته من الجمهور سيدها حين يتبدل الجمهور، ومن أخذها من المصلحة سيغيرها حين يتغير الثمن، ومن أخذها من الخوف سيصمت حين يعلو التهديد، ومن أخذها من هواه سيجد لكل رغبةٍ حجة؛ أما من تلقاها من الله

فقد وجد مركزاً ثابتاً يستطيع أن يرى منه تقلّب الأشياء دون أن يتقلّب معها. ولهذا لم تبدأ
السورة بقول النبي ﷺ منسوباً إلى نفسه، بل بدأت بأمر الله له أن يقول؛ حتى يظل الوحي
مصدر الموقف، وتظل النبوة أمانة بلاغ، ويظل المؤمن من بعده عبداً للحقيقة لا مالكا لها.

ثم جاء النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، فلم تحتج الحقيقة خلف لغة رمادية، ولم تسمّ الشرك
طريقاً آخر إلى التوحيد، ولم تجعل تعدد المعبودات اختلافاً في الأذواق. لقد سمّت الموقف باسمه،
لا لتغلق باب الرحمة، بل لتفتح باب الهداية من موضع الصدق؛ فما من إنسانٍ يستطيع أن يغادر
طريقاً يظن أنه هو الطريق الصحيح، ولا أن يطلب شفاءً من داءٍ قيل له إنه لونٌ من ألوان
العافية.

وهذا الوضوح نفسه كان رحمة؛ لأن الكلمة التي تجرح الوهم قد تنقذ الإنسان، أما الكلمة
التي تطمئنه إلى باطله فقد تكون ناعمةً في سمعه وقاسيةً على مصيره. وليس كل لطف رحمة، كما
أن ليس كل وضوح قسوة؛ فقد يلين المخادع ليحتفظ بضحيته، ويشد الطبيب ليقف انتشار
الداء. والقرآن لا يقيس الرحمة بمقدار ما تتركه العبارة من راحة عاجلة، بل بمقدار ما تفتحه من
سبيلٍ إلى النجاة.

ثم ارتفعت «لا» الأولى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، فإذا بها ليست رفضاً لصنمٍ من حجرٍ
فحسب، بل رفض لكل ما يريد أن يستولي على مقام العبودية في الإنسان. إنها «لا» التي لا تستقيم
الروح إلا بها؛ لأن القلب لا يمتلئ بالتوحيد ما لم يُخلع منه الشرك، ولا يعرف الحرية ما لم يحدد
الجهات التي لن ينحني لها، ولا يحفظ كرامته إذا ظل كل خوف قادراً على شرائه.

إن الأشياء لا تصبح آلهة لأنها تملك قوة حقيقية، بل لأن الإنسان يمنحها من قلبه خوفاً
ورجاءً وطاعةً فوق قدرها. الحجر عاجز، لكن عابده يصنع له سلطاناً في ضميره؛ والطاغية مخلوقٌ

ضعيف، لكن خوف الناس يمد له عرشاً داخل نفوسهم؛ والمال وسيلة، لكن الطمع يحوله إلى غاية؛ والجمهور أفراد متفرون، لكن الحاجة إلى رضاهم تجعله قاضياً يحاكم الإنسان في سريره. وهكذا لا تصنع الوثنية أصنامها من المواد وحدها، بل من مشاعر العابدين التي تُعطى في غير موضعها.

وحين يقول المؤمن: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾، فإنه يسترد تلك المشاعر من الجهات الزائفة ويردها إلى ميزانها؛ يحب المخلوق ولا يؤلِّهه، ويأخذ بالأسباب ولا يتوكل عليها، ويحترم أهل الفضل ولا يعصمهم، وينتمي إلى جماعته دون أن يمنحها حق الحكم على الوحي، ويستعمل المال دون أن يسمح للمال باستعماله. لا يخرج من العالم، لكنه يخرج من عبادته؛ ولا يقطع علاقاته بالأشياء، بل يحرر علاقاته بها من الذل.

ثم جاءت المقابلة: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، لتمتع التسمية الكاذبة التي تجعل كل توجه ديني عبادةً لله، وكل خشوع هدى، وكل طريقٍ متبياً إلى الغاية نفسها. لقد كان المشركون يعرفون اسم الله، لكنهم لم يفردوه بالعبادة؛ وكانوا يقرون بأنه الخالق، لكنهم جعلوا بينه وبينهم شركاء؛ فدلّت السورة على أن المعرفة الناقصة التي لا تُثمر توحيداً لا تنقذ صاحبها، وأن ذكر الله داخل منظومة الشرك لا يحول الشرك إلى إيمان.

إن الله سبحانه لا يقبل أن يكون واحداً بين آلهة، ولا أن يكون له جانبٌ من القلب وللهوى جانب، ولا أن تكون له الصلاة وحدها بينما تكون المرجعية العليا لغيره. إنه رب الإنسان كله، وخالق الحياة كلها، ومالك المصير كله؛ ولذلك كانت عبادته إفراداً لا توزيعاً، وعهداً لا صفقة، ومنهجاً لا لحظة وجدانية عابرة.

ثم تكرر النفي، لأن التوحيد لا يكفيه أن يرفض العرض في لحظةٍ ثم يبقى مستعداً لقبوله إذا ارتفع الثمن: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾. هنا يصبح الرفض هويةً، ويتحول الموقف من فعلٍ عابرٍ إلى ثباتٍ في الذات؛ لست الآن عابداً لما تعبدون، ولن أصير من عابديه حين تتغير الظروف. لن يصنع الحصار إلهاً، ولن يجعل الإغراء الباطل حقاً، ولن يحول طول الطريق المساومة إلى حكمة. كانت قريش تراهن على الزمن؛ تظن أن الرسالة قد تلين إذا طال الأذى، وأن صاحبها قد يقبل غداً ما رفضه اليوم. لكن السورة أعلنت سقوط الرهان قبل أن تبدأ السنوات؛ لأن الذي عرف الله لا يقيس صحة التوحيد بسهولة الطريق، والذي تلقى دينه وحياً لا يراجع أصله كلما تبدلت موازين الأرض. قد تتغير الوسائل، وتطور الأساليب، وتعدد الاجتهادات، لكن المعبود واحد، والمرجعية العليا واحدة، والغاية واحدة.

وهنا نتعلم النفس أن الثبات ليس قسوةً عقليةً ترفض المراجعة، بل وفاءً للأصل الذي لا تقوم الحقيقة إلا به. المؤمن يراجع فهمه، ويعترف بخطئه، ويتعلم ممن خالفه، ويغير وسيلته حين يجد وسيلةً أحكم؛ لكنه لا يجعل وحدانية الله اجتهداً قابلاً للتصويت، ولا يحول العبادة إلى مادةٍ للتبادل. إنه شديد الثبات في المركز، واسع الحركة في الأطراف؛ كالشجرة لا يمنعها رسوخ الجذر من امتداد الأغصان، بل هو الذي يجعل امتدادها ممكناً.

ثم تكرر الخطاب لهم: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، حتى يسقط الوهم الأخير: لا يكفي أن تضيفوا الله إلى معبوداتكم وتزعموا أنكم عبدتم ما أعبد؛ فالتوحيد لا يقبل الإضافة إلى الشرك، بل يشترط خلعها. ليست «لا إله إلا الله» توسيعاً لقائمة الآلهة، وإنما هدمٌ للقائمة كلها، ثم إثبات العبودية لله وحده. لا يكتمل الإثبات دون نفي، ولا تصفو «إلا الله» في قلبٍ لا يزال يوزع خضوعه المطلق على غير الله.

ثم تأتي الآية الأخيرة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، فإذا المفاصلة التي كانت حادة في وضوحها تصبح هادئة في خاتمتها. لقد قيلت الحقيقة، وانتهى التفاوض، وبقي لكل إنسان اختياره وتبعته. لا حاجة إلى شتيمة المخالف، ولا إلى ظلمه، ولا إلى إكراه قلبه، ولا إلى مواصلة جدل تحول من بحث عن الحق إلى محاولة لاستنزاف صاحبه. لكم دينكم الذي رضيتموه، ولي ديني الذي لا أستبدل به شيئاً.

ولم تكن هذه الخاتمة اعترافاً بصحة دينهم، بل رداً لمسؤوليته إليهم؛ فالقرآن لا يجعل جميع الطرق حقاً، لكنه يقر بأن الإنسان هو الذي يختار الطريق ويحمل عاقبته. والحرية لا تجعل النقيضين صواباً، كما أن وجود أبواب متعددة لا يعني أنها جميعاً تؤدي إلى المكان نفسه. يستطيع الإنسان أن يدير وجهه عن الشمس، لكنه لا يستطيع أن يجعل الظلام نوراً لمجرد أنه اختاره. إن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ تجمع في كلماتها القليلة التمييز والعدل: تمييز يمنع خلط العقائد، وعدل يمنع تحويل الخلاف إلى ظلم. فالمؤمن لا يحتاج إلى أن يقر بصحة الباطل حتى يحسن إلى صاحبه، كما لا يملك أن يتخذ رفضه للباطل مبرراً للعدوان على الإنسان. يستطيع أن يجادل بالحسن، ويفي بالعهد، ويصدق في المعاملة، وينصر المظلوم، ويحفظ حقوق الجار، ثم يقول بوضوح: ما تعتقده ليس هو ما أعتقد، وما تعبد ليس هو الذي أعبد.

ذلك هو التعايش النبيل: ألا يكذب بعضنا على بعض، وألا يظلم بعضنا بعضاً. أما التعايش الذي يشترط محو الفروق فهو هدنة هشة تقوم على الخوف من الحقيقة؛ والتسامح الذي يطلب من المؤمن أن يشهد بصحة ما يراه باطلاً ليس تسامحاً، بل إكراه ناعم للضمير. إن احترام حق الإنسان في الاختيار لا يقتضي احترام الخطأ بوصفه حقاً، كما أن نقد الاعتقاد لا يبيح إهدار كرامة معتقده.

ومن هنا لا تصنع السورة إنساناً منغلّقاً، بل إنساناً واضحاً؛ ولا تصنع قلباً ممتلئاً بكرهية الآخرين، بل قلباً متحرراً من الحاجة إلى مجاملتهم في دينه. إنه يستطيع أن يحب لهم الهداية لأنه لم يخلط الرحمة بالتصحيح، وأن يعيش بينهم بالعدل لأنه لم يجعل الاتفاق العقدي شرطاً للخلق الكريم. لا يطلب الغلبة لنفسه، بل الظهور للحق، ولا يرى في كل مخالفٍ عدواً شخصياً، بل إنساناً مسؤولاً يحتاج إلى البيان وقد يفتح الله قلبه غداً.

وكم من رجلٍ كان في صف المخاطبين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثم أصبح بالإيمان من حملة القرآن! لم تغلق المفاصلة باب الهداية، بل أظهرت له المسافة التي ينبغي أن يقطعها. فالإنسان لا ينتقل من الباطل إلى الحق إذا أُقنع أن لا فرق بينهما؛ وإنما تبدأ رحلته حين يرى أين يقف، ويرى النور في الجهة الأخرى، ثم يختار أن يغادر ما كان عليه.

وهذا يجعل السورة خطاب رجاءٍ كما هي خطاب براءة؛ فهي تقطع الأمل في المساومة، لكنها لا تقطع الأمل في الإنسان. تقول للكفر: لا موضع لك في التوحيد، لكنها تقول للكافر بلسان القرآن كله: باب التوحيد مفتوح لك. لا يمكن إدخال الشرك في الإسلام، لكن يمكن للشرك أن يخلع شره فيصبح أحاً للؤمنين. فالعقيدة ثابتة، والإنسان قابلٌ للتحويل؛ والرحمة لا تغير الحقيقة، بل تدعو الإنسان إليها.

وبعد أن نقرأ السورة بهذا الاتساع، لا يعود السؤال: من هم الذين عبدوا الأصنام في مكة؟ بل يصبح: ما الذي يمكن أن أعبده أنا دون أن أشعر؟ ما الذي إذا أمرني أطعت، وإذا هدّدي تنازلت، وإذا رضي عني اطمأنت وإن خالفت الله؟ ما الشيء الذي تتعلق به قيمتي في نظري، حتى إذا فقدته شعرت أن وجودي كله فقد معناه؟ من الذي يملك الكلمة الأخيرة في قراراتي حين يتعارض الوحي والهوى والمصلحة والجمهور؟

قد يقرأ الإنسان السورة ألف مرة، ويظن أنه تجاوزها لأنه لم يسجد يوماً للحجر، بينما يعيش قلبه ساجداً بصورة اجتماعية، أو منصب، أو مال، أو شخص، أو جماعة. وليس معنى ذلك أن كل محبة أو خوفٍ شرك، ولا أن كل معصية تُخرج صاحبها من التوحيد؛ لكن السورة توقظ المؤمن إلى الطرق التي يبدأ منها الانحراف: حين يتجاوز المخلوق قدره، وحين يتحول الحب إلى طاعة مطلقة، وحين يصبح الخوف مبرراً لخيانة الحق، وحين يمنح الهوى نفسه سلطة التحليل والتحریم.

إن المؤمن قد يضعف، لكنه لا يعبد ضعفه؛ وقد يخطئ، لكنه لا يجعل خطأه مرجعية؛ وقد تغلبه شهوته، لكنه يعود بالتوبة ولا يبدل لأجلها تعريف الحلال والحرام. الفرق بين قلبٍ موحد وقلبٍ مستسلم لهواه ليس أن الأول لا يزل أبداً، بل أن زلته تبقى زلةً يعرفها ويستغفر منها، ولا تتحول إلى عقيدة يدافع عنها. إنه يعرف القبلة حتى حين يتعثر في الطريق.

وهنا تكشف السورة أن معركة التوحيد لا تنتهي بتخطيم الأصنام الخارجية؛ فقد يكون تخطيم الحجر أيسر من تخطيم الحاجة إلى رضا الناس، وإسقاط تمثالٍ في ساحة أهون من إسقاط صورة الذات في الضمير، والخروج من عبادة موروثه أيسر أحياناً من الخروج من عبادة الانتماء الذي يمنح الإنسان الأمان. لذلك يحتاج التوحيد إلى مجاهدةٍ مستمرة؛ لا لأن الله سبحانه بعيدٌ عن عبده، بل لأن النفس بارعةٌ في صنع الأرباب من الأشياء القريبة.

وقد يتخذ الفكر نفسه صنماً حين يتكبر صاحبه عن الرجوع إلى الحق، وتتخذ الجماعة نفسها صنماً حين يصبح خطأها صواباً لمجرد أنه صدر عنها، ويتخذ التاريخ نفسه صنماً حين نمنح البشر فيه عصمةً لم يمنحها الله لهم، ويتخذ المستقبل نفسه صنماً حين نبرر كل تنازل باسم الضرورة. وفي كل مرةٍ يطالب شيءٌ محدودٌ بحقٍّ مطلق، ينبغي أن تنهض في القلب سورة الكافرون.

إنها لا تقول لنا: اقطعوا صلّتكم بكل شيء، بل تقول: أعيدوا الأشياء إلى مقاديرها؛ فالمال رزقٌ لا رب، والسلطة أمانةٌ لا ألوهية، والجماعة وسيلةٌ للتعاون على الحق لا مصدرٌ للحق، والعلماء أدلاء يُعرف فضلهم ولا يُرفعون فوق البشرية، والعقل أداةٌ للفهم لا خالقٌ للحقيقة، والذات مكرمةٌ بالعبودية لا مستقلةٌ عن خالقها. وحين تستقر الأشياء في مواضعها يستعيد الإنسان توازنه؛ فلا يزدري الدنيا ولا يعبدها، ولا يحتقر الناس ولا يذوب فيهم.

لقد جاءت السورة في مكة حين كان الباطل قوياً في الظاهر، وكان الحق قليل الأنصار؛ فكأنها تعلم المؤمن أن قوة الموقف لا تأتي من عدد حامليه، بل من المصدر الذي يستند إليه. وقف النبي ﷺ وحده أمام نظامٍ كامل من العادات والمصالح والرموز، وقال ما أمر أن يقول. ثم مضى الزمن، وسقطت الأصنام، وبقيت السورة تُتلى؛ لأن الجبر الذي ترفعه القوة قد يسقط، أما الكلمة التي يحملها الحق فتكبر بعد موت الذين حاربوها.

وهذه من أعظم عبر السورة: لا تنفس الحقيقة بمراحلها الراهنة. قد يكون الباطل ممتلئ الساحات، مالكاً للنابر، مسنوداً بعادات القرون، لكن ذلك لا يمنحه ذرةً من الحق؛ وقد يكون المؤمن وحيداً لا يسمع كلمته أحد، لكن وحدته لا تنقص من صدقه. إن الحق لا يأخذ شرعيته من كثرة الأيدي المرفوعة له، والباطل لا يفقد اسمه لأن الجماهير اعتادته.

لكن السورة لا تعلم المؤمن أن يبحث عن الوحدة أو يفتن بها؛ فليس كل منفردٍ على حق، وليس مجرد مخالفة الناس فضيلة. إنها تعلمه أن يبحث عن رضا الله؛ فإن اجتمع الناس معه حمد الله، وإن خالفوه لم يجعل مخالفتهم دليلاً على بطلان ما معه. المعيار ليس أن تكون مع الجماعة أو ضدها، بل أن تكون مع الحق؛ فقد يكون الحق مع جماعةٍ مؤمنة، وقد يحمله فردٌ في لحظة غفلة الناس، وفي الحالتين يظل ميزانه وحي الله لا لذة الانتماء ولا نشوة الاختلاف.

وتأتي سورة الكافرون في زمننا كأنها نزلت لتوها؛ لأن المساومات تغيرت لغتها ولم تتغير حقيقتها. لم يعد الصنم دائماً تمثالاً في معبد، بل قد يكون تصوراً يطلب من الإنسان أن يعترف للكون بأنه بلا خالق، وللحياة بأنها بلا غاية، وللهوى بأنه مصدر القيم، وللقوة بأنها صاحبة الحق. وقد لا يطلب من المؤمن أن يعلن الكفر، بل أن يحتفظ باسم الإيمان بعد أن يفرغه من سلطانه؛ أن يقرأ القرآن على الموتى ولا يدعه يوقظ الأحياء، وأن يجعل الدين زينةً للذاكرة لا ميزاناً للحاضر.

وفي مواجهة هذا كله تقول السورة: ليس الإسلام مكوّنًا تجميلياً يضاف إلى الحياة بعد اكتمال بنائها على غير هدى الله، بل هو المصدر الذي يعيد تعريف الحياة والإنسان والغاية. ليس مجرد شعائر معزولة، وإن كانت الشعائر أركانها العظيمة، بل عبودية تمتد من المحراب إلى السوق، ومن الخلوة إلى المجال العام، ومن النية إلى الأخلاق. ليس معنى ذلك إلغاء خبرة البشر أو تجميد الحياة، بل وضع الخبرة كلها داخل أفق العبودية، حتى لا تتحول الوسيلة إلى معبود، ولا القوة إلى شريعة، ولا النجاح إلى مبرر للخيانة.

إن العالم الذي يملك أدوات هائلة ولا يعرف غايته قد يصبح أكثر قدرة على الضياع؛ فالعلم يجيب عن سؤال كيف، لكنه لا يستقل بالجواب عن سؤال لماذا نعيش، ولأي غاية نستعمل ما عرفناه. وحين تغيب عبادة الله لا يتوقف الإنسان عن العبادة، بل تبدأ أشياءه المصنوعة في المطالبة بروحه: يعبد الإنتاج، ثم يضحي بالإنسان لأجله؛ ويعبد السرعة، ثم يفقد القدرة على التأمل؛ ويعبد الصورة، ثم يعيش غريباً عن حقيقته؛ ويعبد الاستهلاك، ثم يزداد جوعاً كلما امتلك.

وسورة الكافرون تعيد السؤال إلى جذره: ما المعبود الذي تنتظم حوله الحضارة؟ ما القيمة التي لا تسمح لنفسها أن تُسأل؟ ما الشيء الذي يُضحى لأجله بكل شيء ولا يُضحى به لشيء؟ هناك يوجد الصنم الحقيقي، وإن لم تُشعل أمامه الشموع. فإذا كان الرب هو الله، أصبحت القوة أمانة، والعلم مسؤولية، والاقتصاد وسيلةً لعمران الإنسان، والحرية طريقاً إلى الاختيار الأخلاقي؛ وإذا صار شيء من هذه القيم الجزئية رباً، التهم الإنسان الذي صنعه.

وهكذا لا تكون سورة الكافرون سورة عزلة عن الحضارة، بل سورة إنقاذها من أن تعبد منتجاتها. لا تدعو المؤمن إلى ترك العالم، بل إلى دخوله بقلب لا يستعبده العالم، يبني ويتعلم ويزرع ويصنع ويحاور، لكنه يعرف أن الغاية أكبر من الأداة، وأن قيمة الإنسان لا يقررها إنتاجه ولا رصيده ولا حضوره في عيون الآخرين، بل عبوديته لله وما يثر عنها من عملٍ صالح. وحين يصل الإنسان إلى هذا التوحيد لا يصبح ضعيف الصلة بالناس، بل يصبح أقدر على محبتهم، لأنه لم يعد يحتاج إلى استعمالهم لتأكيد ذاته. والذي يطلب قيمته من الله يستطيع أن يعطي الناس دون أن يجعل عطايه استثماراً في مديحهم، وأن ينصحهم دون أن يجعل نصيحته استعلاءً، وأن يخالفهم دون أن يشعر بأن وجودهم تهديدٌ لوجوده. أما من يعبد صورته في عيونهم فإنه يحبهم ما داموا يثبتونها، فإذا خالفوه تحولت محبته إلى غضب.

فالتوحيد يشفي العلاقة بالآخر؛ لأنه يخرج الآخر من مقام الرب الذي يهب القيمة أو ينزعها. يصبح الناس إخوة في الإنسانية، منهم المؤمن الذي تجمعنا به أخوة الدين، ومنهم المخالف الذي له حق العدل والدعوة والإحسان، لكن أحداً منهم لا يملك ضميري. لا أخون الحق كي يحبوني، ولا أظلمهم كي أثبت أنني لا أعبدهم. تلك هي الحرية الناضجة التي لا تتحول إلى قطيعة، والمحبة الناضجة التي لا تتحول إلى ذوبان.

وإذا كان لكل سورة أثرٌ تريد أن تتركه في القارئ، فإن سورة الكافرون تريد أن تتركه قائماً بعد تلاوتها، كأنها تسأله: هل تستطيع أن تقول «لا» حين تصبح «نعم» أسهل وأريح؟ وهل تستطيع أن تقولها بلا كبير ولا ظلم؟ هل تستطيع أن تحفظ نقاء عقيدتك ونقاء أخلاقك معاً؟ هل تستطيع أن ترفض باطل الإنسان وتظل راغباً في هدايته؟ هل تستطيع أن تستغني عن اعترافه بك دون أن تستغني عن العدل معه؟

إنها لا تطلب قلباً قاسياً، بل قلباً صافياً؛ والقسوة شيء والصفاء شيء آخر. القاسي يرفض الآخر لأنه يكرهه، والصافي يرفض الباطل لأنه يحب الحق، وقد يحب لصاحب الباطل أن ينجو منه. القاسي يحتاج إلى خصمه كي يشعر بقوته، أما الموحد فيستمد قوته من ربه، ولذلك لا يحمل في وضوحه نزعة الانتقام، ولا يجعل من العقيدة وقوداً لأمراض النفس.

وما أجمل أن تنتهي هذه السورة في حياة قارئها لا بارتفاع صوته على الآخرين، بل بانخفاض جبهته لله؛ فقد قرئت من أجل العبادة قبل أن تُستعمل في الجدل. وكلما ازداد المؤمن فهماً لقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ازداد تحقيقاً لعبادة الله، وإلا تحولت البراءة إلى فراغ. ليس المقصود أن تبقى طوال العمر نعد ما لا نعبد، بل أن يصفو القلب بعد نفيه حتى يمتلئ بمعرفة من يعبد.

حين لا يبقى في القلب معبودٌ إلا الله، لا يعني ذلك أن تغيب منه محبة الأهل والوطن والأصدقاء والجمال، بل أن تنتظم المحاب كلها تحت المحبة العليا، فلا تطاع محبةٌ في معصية الله، ولا تتحول نعمةٌ إلى شريك. عندئذٍ يحب الإنسان خلق الله بميزان الله، فيكون حبه أظهر؛ لأنه لا يستعبد محبوبه ولا يسمح له أن يستعبده، ولا يطلب منه ما لا يقدر عليه، ولا يجعل بقاءه شرطاً للإيمان بالحياة.

وحين لا يبقى في القلب معبودٌ إلا الله، لا يزول الخوف البشري، لكنه يفقد حقه في القيادة؛ يخاف الإنسان الألم والفقد، لكنه لا يجعل خوفه شريعة. ولا تزول الرغبة، لكنها تصبح مذبذبةً بالحلال، ولا يزول الطموح، لكنه لا يُبنى على الخيانة، ولا تزول الحاجة إلى الناس، لكنها لا تتحول إلى ذل القلب لهم. التوحيد لا يلغي إنسانية الإنسان، بل يمنع ضعفها الطبيعي من أن يتحول إلى عبودية.

وحين لا يبقى في القلب معبودٌ إلا الله، لا يعود الثبات بطولَةً متكلفةً، بل نتيجةً طبيعيةً لوحدة الوجهة. الذي يسير إلى جهاتٍ كثيرةٍ يترقّ عند كل مفترق، أما الذي قبلته واحدة فيستطيع أن يتحمل وعثاء الطريق. قد يتعب، لكنه يعرف إلى أين يمضي؛ وقد يبكي، لكنه لا يبدل الجهة؛ وقد يسقط، لكنه ينهض نحو القبلة نفسها.

وحين لا يبقى في القلب معبودٌ إلا الله، يصبح الإنسان قادراً على أن يخسر أشياء دون أن يخسر نفسه؛ يفقد مالاً ولا يفقد أمانته، ويغادر منصباً ولا يغادر مبدئه، ويبتعد عنه الناس ولا يبتعد عن ربه. يعرف أن ما فاتته من الدنيا كان محدوداً، وأن ما بقي له بالله أوسع من كل فائت. وليس هذا زهداً في نعم الله، بل رفضٌ لأن تتحول النعمة إلى ثمنٍ للدين.

هذه هي الهدية الكبرى التي تمنحها سورة الكافرون لقارئها: أن تعيد إليه نفسه بعد أن وزعتها عليه الأشياء، وأن تجمع قلبه بعد أن تنازعت عليه الجهات، وأن تضعه أمام العالم رحيماً لا ذائباً، قوياً لا ظالماً، واضحاً لا متكبراً. تمنحه شجاعة الكلمة، ونقاء العبادة، وثبات الهوية، وعدل المسافة. بدأت السورة بأمر: ﴿قُلْ﴾، وكأن الإيمان الذي يبقى حبيس القلب ولا يظهر عند موضع الشهادة لم يكتمل أثره؛ وانتهت بإعلان: ﴿وَلِيَّ دِينٍ﴾، وكأن الكلمة التي لا تتحول إلى انتماءٍ

ومسؤولية تبقى صوتاً عابراً. وبينهما صنعت إنساناً يعرف ما يقول، ولماذا يقول، ولمن يعبد، وعلى أي طريق يموت.

فيا من تقرأ سورة الكافرون: لا تجعلها حديثاً عن أصنامٍ كُسرت، بل نوراً تكشف به الأصنام التي لم تُكسر بعد. لا تجعلها وصفاً لقوم مضوا، بل عهداً لنفسٍ تعيش بين ضغوطٍ لا تنتهي. لا تجعل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ كلمةً تدفع بها الآخرين بعيداً، وتنسَ ﴿وَلِي دِينِ﴾ وما تحمله من تكليفٍ ثقيل. اسأل دينك أن يظهر في صدقك وعدلك ورحمتك وثباتك؛ فليس أعظم بيان للإيمان أن ينتصر لسانك في الجدل، بل أن يرى الناس في أخلاقك أثر المعبود الذي وحدته. وإذا وقفت يوماً أمام مساومةٍ لا يراها أحد، وعرض عليك أن تريح شيئاً وتفقد في مقابله جزءاً من صفاء قلبك، فتذكر هذه السورة. وإذا أوحشتك قلة السائرين معك، فتذكر رجلاً واحداً أمر أن يواجه مكة كلها بكلمة. وإذا أغراك الباطل بأنه تنازل مؤقت، فتذكر: ﴿وَلَا أَنَا عَبْدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾. وإذا دعاك الاختلاف إلى الظلم، فتذكر أن المفاصلة انتهت ببيانٍ هاديٍّ لا بعدوان: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

ثم امضِ إلى الله بقلبٍ واحد؛ لا تترك للخوف فيه محراباً، ولا للهوى شريعة، ولا للجمهور عرشاً، ولا للمصلحة حقَّ تبديل الحقيقة. أحب الخلق، وانتفع بالأسباب، وشارك في عمران الأرض، لكن لا تمنح شيئاً من ذلك حقَّ العبودية. كن في العالم بكل طاعتك، ولا تجعل العالم في قلبك رباً؛ فالكون كله مخلوق، والإنسان كله عبد، والله وحده هو الإله الحق الذي لا شريك له.

وعندئذ تصبح سورة الكافرون أكثر من ست آياتٍ تلتوها؛ تصبح ضميراً يحرسك، وبوصلةً تعيدك، وحداً يمنعك من الذوبان، ورحمةً تمنعك من الظلم. وتصبح «لا» التي فيها باباً إلى أعظم «نعم»: لا أعبد ما سوى الله، لأنني رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً. وهنا يكتمل معنى الحرية: ألا يكون في القلب معبودٌ إلا الله، وألا تكون في الحياة كلمةٌ أعلى من كلمته، وألا يكون في المصير رجاءٌ أعظم من رضاه. وحين يبلغ القلب هذا المقام يستطيع أن يقف، ولو كان وحده، أمام أصنام الأرض كلها، لا يصرخ ولا يرتجف ولا يعتدي، وإنما يقول في سكونة اليقين وكرامة العبودية:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾